إحياء فقه الدعوة

المنطلق

الكتاب الأول

محمد أحمد الراشد



مؤسسة الرسالة

بيروت لبنان

إحياء فقه الدعوة

الكتاب الأول

المنطلق

محمد أحمد الراشد

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م
بيروت

مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ شارع سوريا
بناية صمدي وصالحة
هاتف ٢٩٥٥٠١ ـ ص٠ب : ١١٧٤٦ ـ برقيا : بيوشران

مقدمة

اجلس
بنا
نؤمن
ساعة

بَين يَدَي هَـٰذِهِ السِّلسِلَةِ

في بيان غايتها ومنهجها

لن ينفلك الداعية المؤمن بين جذبين :

جذب إيمانه ، ونيته ، وهمته ، ووعيه ، وشعوره بمسؤوليته ، فهو من ذلك في عمل صالح ، أو عزمة خير .

وجذب الشيطان من جهة أخرى ، وتزيينه الفتور ، وحب الدنيا ، فهو من ذلك في غفلة ، وكسل ، وطول أمل ، وتراخٍ عن تعلم ما يجهل .

وهذا التردد بين الجذبين أزلي قديم لا ينقطع ، وبسببه أوجب المؤمنون على أنفسهم جلسات تفكر وتأمل وتناصح ، يتفقدون فيها النفس أن يطرأ عليها كبر أو بطر ، والقلب أن يعتوره ميل ، والعلم والإيمان أن يتلبسا بافراط يزيد بدعة ،

أو تفريط يهمل أمراً وإرشاداً .

وقد ترجم معاذ بن جبل رضي الله عنه هذا الإحساس بكلمة غدت مادة في دستور أجيال المؤمنين ، فقال لصاحبه وهو يذكره : **(اجلس بنا نؤمن ساعة)** [1] .

فأخذها ابن رواحة ، فقال لابي الدرداء ، رضي الله عنهما ، وهو آخذ بيده : **(تعال نؤمن ساعة . ان القلب اسرع تقلباً من القِدر اذا استجمعت غليانا)** .

فأخذناها عنهما ، فكانت هذه المواعظ في فقه الدعوة ، ندعو معها داعية الإسلام أن يجلس مع كل موعظة ساعة ، يؤمن ويراجع نفسه ، وعلمه ، وهمته .

● بقية ... وأمل

وهكذا وضعت هذه السلسلة لتخاطب دعاة الإسلام ، من المصلين المعتزين بدينهم ، المتحلين بأخلاق المؤمنين ، دون الغافلين ، فضلا عن المنحرفين .

ذلك أن العالم الإسلامي اليوم لا يحتاج لحل مشكلته إلى انتقال جمهور جديد من المنحرفين والغافلين إلى التمسك بالإسلام ، بمقدار ما هو بحاجة سريعة إلى توعية المتمسكين به ، وبعث هممهم ، وتعريفهم طريق العمل وفقه الدعوة . ولا تزال هناك

---

(١) صحيح البخاري ١ / ١٠ .

بقية باقية من المؤمنين كثير عددها ، تكفي لقيام الخير الذي نبغي ونريد ، إذا عرفت التجرد ، وتقللت من الدنيا ، وبعدت عن الفتن ، وصبرت في المحن ، واجادت فن قيادة الأمة .

ولهذا ، فان هذه المواعظ سوف لا تورد كلاماً فكرياً في الموازنة بين الاسلام والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية الحديثة ، ولا تحاور المخلّطين الذين يجمعون مع الإسلام وغيره ، بل اقتصرت على مخاطبة مسلم ، صادق الإيمان ، نقي العقيدة ، يتألم لواقع المسلمين الحاضر ويحزن ، فتدله على طريق العمل المثمر وسبل الخلاص ، وما يلزمه من الارتقاء بتربية نفسه إلى مستوى متطلبات هذا الطريق . أو تخاطب مواعظنا داعية عرف طريق العمل ، وانخلع عن المحاولات الفردية ، وآثر العمل الجماعي مع ميامين نفروا لمقارعة الجاهلية والرجوع بالأمة إلى إسلامها ، لكنه بحاجة إلى تثبيت ، وزيادة بذل ، وترقيق قلب القلب .

فمن غفل عن هذه المقاصد : أخطأ التعرف على أهمية هذه السلسلة ، واضطرب في الاستفادة منها .

● حاجة أهاجت القلب

ومن مارس التربية الحركية الإسلامية يدرك ندرة الكتب التي تفي بمثل هذه الحاجات من دون أن يكون فيها بعض العيب ، من حديث ضعيف ، أو تفسير مرجوح ، أو بلاغة متكلفة ، أو استعانة بأقوال أهل البدع ، أو استعمال لأسلوب

معقد وتبويب يسرف في التقسيم يأباه الاسترسال الواجب في المخاطبات الايمانية ، أو حشر لسجع مملول متكرر ، أو إيراد لكلمات وحشية غريبة واصطلاحات مخترعة مبهمة، وأمثال ذلك.

وإذا سلم كتاب من هذه العيوب ، ولم يكن مطولا طولا منفراً ، أو مختصراً اختصاراً يجعله يسد القليل من الحاجة دون تغطية معظم المرحلة التربوية ، أو مخلوطاً بمباحث خلافيـــة وردود فلسفية كلامية لا يحتاجها الداعية ، فانه قد لا يخلو من نقص عام يقتصر معه مؤلفه على ذكر اخلاقيات المسلم الفرد ، ويهمل ذكر مستلزمات الدعوة الجماعية والعمل الحركي .

ثم إن الكثير من الكتب الحديثة قد أغفلت ايراد أقوال الائمة من السلف ، ولم تحرص على بركة كامنة في نصـــوص الدعاة القدماء .

فكان كل هذا مما أهاج القلب لتأليف هذه المواعظ .

وبدأت بالاقتباس من القرآن الكريم .

ثم ولجت الصحيحين ، للبخاري ومسلم ، واقتصرت عليهما فلـــم أتعدهما إلا قليلا ، وإلى حديث صحيـــح ، وخلصت مواعظي بذلك من الحديث الضعيف والموضوع .

ونخلت كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك ، وكتاب الزهد لأحمد بن حنبل ، وكتب أخرى في الرقائق والتعريف بطبقات الصالحين ، متحرياً أبلغ الأقوال معنى ومبنى ، معرضاً عما صح معناه وركّ لفظه ، فضلا عن الذي جزل مبنـــاه واشتبه

مقصده ، وحريصاً على ما ينسب للصحابة والتابعين والأئمة القدماء ، مقلا عمن بعد القرن الفاضل الثالث وإن كانوا نجباء، إلا الدعاة منهم ، كابن تيمية ، وابن القيم ، وابن الجوزي .

● أوهام وثقات

وأيضاً ، فاني في هذا السياق ، قد استفدت من أقوال جمهرة من الزهاد الثقات الذين يظنهم بعض المتشددين ضعافاً مبتدعين ، بسبب أقوال ابتداعية نسبها لهم من بعدهم ، هم منها أبرياء .

كمثل إبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وبشر بن الحارث الحافي ، والجنيد البغدادي ، وعبد القادر الكيلاني .

● ابراهيم بن أدهم على درب الاستقامة

فأما إبراهيم بن أدهم ، فهو ثقة بإطلاق ، وقد ترجم كتاب (تهذيب التهذيب) لابن أدهم ترجمة جيدة كشفت عن إجماع النقاد من علماء الرجال على توثيقه .

ولعل من اللازم أن أذكر القارىء هنا بأن هذا الكتاب يعتبر المرجع الرئيس الأول في علم الرجال ، فقد ألف الحافظ المقدسي كتابه : (الكمال في أسماء الرجال) وأودع فيه جميع أقوال الأئمة في رجال الصحيحين والسنن الأربعة ، معتمداً على تواريخ البخاري وكتاب ابن أبي حاتم وكتب ابن معين وأصحابه ، وأمثال ذلك . ثم جاء الحافظ المِزّي فاختصره

وسماه (تهذيب الكمال) ، وجاء الحافظ ابن حجر العسقلاني من بعد ، فاختصره وزاد عليه أشياء فاتتهما ، وهي كثيرة ، وعقب عليهما ، وسمى مختصره : (تهذيب التهذيب) . ولا زالت المقارنة بين كتاب ابن حجر هذا ، وبين المصادر الأصيلة التي اعتمد عليها هؤلاء الحفاظ الثلاثة، مما طبع ورأيناه، تبدي دقة بالغة في نقلهم النصوص منها .

وأثمن توثيق تبديه ترجمة ابن أدهم في تهذيب التهذيب (١) يكمن في قول الإمام يحي بن معين فيه ، فقد قال عنه إنه : (عابد ثقة) .

واصطلاح : (ثقة) عند ابن معين يدل على منزلة أعلى من مجرد الصدق ، فالثقة عنده وعند معظم الائمة هو : من كان صدوقاً ، ورعاً ، بعيداً عن البدعة الغليظة .

وناهيك بابن معين ناقداً للرجال ، فقد انعقد الاجماع على قبول رأيه ، لما له من تشدد بالغ في توثيقهم .

ونتقدم قليلا ، لنجد محمد بن عبدالله بن نمير الكوفي يقول في ابن أدهم أيضاً إنه : (ثقة) .

وما أدراك مَن ابن نمير هذا ؟

هو (درة العراق) كما يقول الامام أحمد بن حنبل ، وتلمذ له البخاري وروى عنه في صحيحه ، وسماه الحسن بن

---

(١) تهذيب التهذيب ١ / ١٠٢ .

سفيان الفَسَوي : (ريحانة العراق) . وقال علي بن الجنيد : (كان أحمد وابن معين يقولان في شيوخ الكوفيين ما يقول ابن نمير فيهم .) ، فهو العمدة في التعريف برجال الكوفة ، وقد عاش ابن أدهم دهراً طويلا في الكوفة قبل أن ينزل الشام وبعد ذلك .

وكذلك الامام النسائي صاحب السنن ، فقد قال إن ابن أدهم : (ثقة مأمون أحد الزهاد) . والنسائي ثبت حجة في الرجال ، يميل مذهبه إلى التشدد في توثيقهم ، كما هو معلوم عند أهل هذا الفن .

وقال الإمام يعقوب بن سفيان : إبراهيم بن أدهم من الخيار الأفاضل . وهذا اللفظ يتجاوز مجرد الاعتراف له بأهلية رواية الحديث إلى الاقرار بالخيرية والفضل له .

وقال الامام الدارقطني صاحب السنن : إذا روى عنه ثقة فهو صحيح الحديث .

وقال العِجْلي : ابن أدهم ثقة . والعجلي ناقد بصير متخصص في النقد ، ولكتابه في الثقات منزلة عند المحدثين .

وقال ابن حِبّان في كتاب (الثقات) : كان ابن أدهم صابراً على الجهد ، والفقه ، والورع الدائم ، والسخاء الوافر ، إلى أن مات في بلاد الروم سنة ١٦١ ه .

ولعل أحداً يتململ هنا ويقول : ابن حبان متساهل في التوثيق ، وينسى أن التساهل المنسوب إلى ابن حبان مخصوص في الذين لم يجد أحداً يوثقهم أو يجرحهم ، فيرجح جانب الستر

فيهم ويصنفهم في الثقات من دون اطراء . ولكنه هنا يطري على رجل معروف مشهور .

وقال أبو الاحوص : رأيت من بكر بن وائل خمسة ما رأيت مثلهم ، فذكر ابن أدهم فيهم .

ومن لاخبرة له بعلم الرجال يمر على مثل هذه الأقوال مروراً عابراً ، لجهله بمنازل أصحابها ، ولا يدري – مثلاً – أن أبا الأحوص هذا هو شيخ جمهرة من شيوخ البخاري ، وحديثهم عنه متوافر في الصحيح ، وكان كوفياً معاصراً لإبراهيم بن أدهم ، وذكروا عنه أنه كان : (ثقة صاحب سُنّة واتّباع)[1] ، أي أنه كان صحيح العقيدة ، حاثّاً على اتباع السنن ، داعياً إليها ، ولم يكن يروي الحديث فقط . ومن كان في مثل هذه الحال ، كيف يسوغ له توثيق مبتدع ؟

وقال الامام أحمد بن حنبل في كتاب الزهد : سمعت سفيان بن عُيينة يقول :

رحم الله أبا إسحاق – يعني إبراهيم بن أدهم – ، قد يكون الرجل عالماً بالله ليس يفقه أمر الله .

ومرة أخرى يتعرض قليل الخبرة هنا للوهم حين يظن أن هذه الكلمة تحمل شبه تضعيف ، لما في ظاهرها من إشعار بذلك ، ولكنها أقرب الكلمات إلى توثيق عقيدة ابن أدهم ، فابن عيينة يقر هنا بأن ابن أدهم من العلماء بالله ، أي بتوحيده

---

(١) تهذيب التهذيب ٤ / ٢٨٣ .

وصفاته ، لكنه ليس بفقيه في الأحكام ، والأمر والنهي ، وفروع المعاملات .

وهذا القول على الأخص ، ينفي الجانب الذي يرتكز عليه من يتهم ابن أدهم ، إذ أن ابن عيينة وإن اقام بمكة وصار إمامها ، إلا أنه كوفي الأصل ، وله مع ابن أدهم مجالس .

هذه هي التوثيقات التي أوردها ابن حجر خلال ترجمة إبراهيم في تهذيب التهذيب ، ويمكننا أن نضيف لها توثيقات أخرى تؤخذ بالقرينة من نفس الترجمة ، فقد ذكر أن إمام الكوفة سفيان الثوري ، المعاصر لابن أدهم ، قد روى عنه الحديث ، وكذلك الأوزاعي إمام الشام ، وروايتهما وإن لم تكن دلالة توثيق كاملة ، إلا أنها تلقي في القلب نوع اطمئنان . ومن القرائن الأخرى أيضاً : أن الترمذي روى له في باب الطهارة من سننه حديثاً معلقاً ، وما هي بدلالة توثيق كاملة ، نقولها مرة أخرى ، لكنا نعرف أنهم كانوا يتجنبون أصحاب البدع العظيمة والعقيدة الفاسدة .

ولهذا نجد ابن تيمية قد سبقنا ، فشهد لابن أدهم ، وقال : (أما المستقيمون من السالكين ، كجمهور مشايخ السلف ، مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم . . . .)[1] .

وهذه تزكية ظاهرة لعقيدة إبراهيم ، تتجاوز مجرد الاقرار له بالصدق .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠ / ٥١٦

ويهم بعضهم حين يفهمون أن توثيقات النقاد الذين ذكرناهم ، لابن أدهم ، تقتصر على توثيق روايته للحديث دون تزكية عقيدته ، وأن أصحاب الحديث قد يروون لمبتدع صادق .

فهذا القياس لا يَرِد ، إذ أن الصادقين أصحاب البدع ، الذين أوردت المدونات الحديثية لهم شيئاً من رواياتهم ، كانت بدعتهم معروفة مشهورة في جيلهم ، فذكرها النقاد ، ونصوا على تلبسهم بها ، ومع ذلك أجازوا الرواية عنهم ، وجعلوا حديثهم حجة أو صالحاً للاستشهاد به ، بمقدار بدعتهم . أما الذين أطلقوا فيهم القول بالتوثيق ، فيشمل قولهم توثيق عقيدتهم. وأجزم بذلك وإن لم يكن بين يدي قول ناقد يقرر ذلك قاعدة ، ولكنه الاستقراء الذي جعل ما أقول واضحاً لدى كل متداولي علم رجال الحديث ، فان جمع أقوال علماء الجرح والتعديل ، على نحو ما أودع في كتاب تهذيب التهذيب ، لم يترك أحداً من المبتدعة إلا وذكرت بدعته في ثنايا ترجمته ، إن أغفل ذكرها ناقد ، ذكرها آخر ولا بد ، ولم يفلت أحد من تدقيقهم .

فتضعيف إبراهيم بن أدهم إذن ، يصطدم بعقبة توثيق القدماء له ، خصوصاً وإن فيهم ابن عيينة الذي صرح بأن ابن أدهم من العلماء بالله ، ناهيك عن شهادة ابن تيمية له بالاستقامة ،

وهو الخبير بجزئيات المواقف العقائدية لأجيال المسلمين التي سبقته ، خبرة لا نستطيع التقليل من شأنها .

● فضيل سيد المسلمين

وأما الفضيل بن عياض فعالي المكانة ، وخصه كتاب التهذيب بترجمة رائعة (١) .

وأول من يوثقه : صاحبه أمير المحدثين عبدالله بن المبارك ، إذ قال :

(وأما أورع الناس : ففضيل .) .

وقال : (ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من فضيل .) .

وقال : (إذا نظرت إلى فضيل : جُدّد لي الحزن ، ومقتُّ نفسي .) .

وظاهر أن توثيقه هذا لا يشمل الرواية فقط ، بل هو يقر بالأفضلية العامة ، ولا يكون أفضل الناس من هو مبتدع . وقد روى ابن المبارك عن الفضيل تأكيداً لقوله فيه .

ووثقه أيضاً إمام العراق عبدالرحمن بن مهدي ، فقال :

(فضيل بن عياض رجل صالح ، ولم يكن بحافظ .) .

وروى عنه ، وهو لا يروي إلاّ عن ثقة .

وكذلك سفيان بن عيينة إمام مكة ، قال : (فضيل ثقة) ، وروى عنه .

---

(١) تهذيب التهذيب ٨ / ٢٩٤

وقال شريك القاضي نموذج العدل : (لم يزل لكل قوم حجة في زمانهم ، وأن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه.).

وقال أبو حاتم : (صدوق) .

وقال الدارقطني إمام بغداد : (ثقة) .

وأما النسائي فقال : (ثقة مأمون رجل صالح .) .

ورأى شيخ البخاري الحسين بن حريث حديث الفضيل حجة ، وروى عنه .

وعدّه القواريري شيخ البخاري ثاني أفضل المشايخ الذين رآهم ، وروى عنه .

ووصفه عثمان بن أبي شيبة الكوفي ، شيخ البخاري ومسلم بأنه : (كان ثقة صدوقاً ، وليس بحجة .) ، أي يطلب لحديثه متابعاً .

وقال العجلي : (كوفي ثقة ، متعبد ، رجل صالح .)

وقال ابن سعد صاحب الطبقات : (كان ثقة نبيلا فاضلا عابداً ورعاً كثير الحديث .) .

وذكره ابن حبان في الثقات ، ووصفه بالورع الدائم ، والخوف الوافر ، والبكاء الكثير .

ومن القرائن الدالة على حسن حاله : رواية رهط آخر من الثقات عنه ، فقد روى عنه الإمام الشافعي ، ويحي بن سعيد القطان إمام البصرة ، وشيخا البخاري ومسلم : يحيى بن يحيى التميمي ، وعبدالله بن مسلمة القعنبي ، وهما من أصحاب مالك الكبار . وشيخ البخاري : أحمد بن عبدالله بن يونس ، أحد

رؤوس العلم في الكوفة . ومسدد بن مسرهد الذي قال فيه البخاري خلال صحيحه : هو مسدد كاسمه . وعبدالله بن الزبير الحميدي ، ثالث المزني والبويطي في صحبة الشافعي . وإمام خراسان: قتيبة بن سعيد، وهما من شيوخ البخاري ومسلم.

وحديث الفضيل نفسه تجده في الصحيحين .

ولم يضعفه إلاّ قطبة بن العلاء ، إذ اتهمه بأنه روى أحاديث فيها إزراء على عثمان رضي الله عنه ، فقال ، ابن حجر : (لم يلتفت أحد إلى قطبة في هذا.)، وأورد عن الفضيل ما يدل على توقيره لعثمان ، عكس ما ادعاه قطبة .

وأما ابن تيمية فقد أكثر من مدحه ، فسماه في موضع : (سيد المسلمين في وقته .) [1] .

وعدّه من (المؤمنين ، وسلف الأمة ، وأكابر المشايخ .) [2]

وأسلفنا أنه عدّه في المستقيمين من السالكين .

وعدّه في الفتوى الحموية من الأئمة ، وذكر عنه عقيدة صحيحة .

• معلّم الزهد

وأما بشر بن الحارث الحافي فقد قلّده أبو حاتم وسامه ،

---

(١) سماع الصوفية ، وهي مطبوعة ضمن مجموعة رسائل بعنوان : الجامع الفريد ص ٦٧٧ .

(٢) الوصية الكبرى ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١ / ٣١٩ .

مع تشدده البالغ ، فقال : (ثقة ، مرْضي .) [1]

وقيل لأحمد بن حنبل : مات بشر . فقال : (مات رحمه الله وماله نظير في هذه الأمة إلاعامر بن عبد قيس .) ، وعامر هذا تابعي ناسك من أقران أويس .

وقال الامام إبراهيم الحربي : (ما أخرجت بغداد أتم عقلا ولا أحفظ للِسانه من بشر .) .

وقال ابن حبان في الثقات : (أخباره وشمائله في التقشف ، وخفي الزهد والورع ، أظهر من أن يحتاج إلى الاغراق في وصفها .) .

وقال الدارقطني : ثقة ، زاهد ، جبل .

وقال الخطيب البغدادي : (كان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد ، وتفرد بوفور العقل ، وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة ، واستقامة المذهب ، وعزوف النفس .) .

وقال مسلمة بن قاسم الأندلسي : (ثقة فاضل .) .

كل ذلك في ترجمته في تهذيب التهذيب [2] .

وأخباره في الانتصار للامام أحمد خلال محنة خلق القرآن مبسوطة في كتاب ابن الجوزي حول مناقب أحمد ، ولا أعلم أحداً ضعفه .

وأما تركه التكسب ، واعتماده على ربح اخته من بيعها الصوف المغزول ، فليس بعيب ، إذ كانوا يرون أنفسهم

---

(١) الجرح والتعديل لابن ابي حاتم ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٥٦ .

(٢) تهذيب التهذيب ١ / ٤٤٤ .

معلمين للأمة يجب تفرغهم ، وكان شعبة بن الحجاج ، رأس أهل جيله من المحدثين ، متفرغاً للحديث ، يعيش على مال أخيه الكادح ، ولم يَعِبْه أحد بذلك .

● الجنيد من أئمة الهدى

أما الجنيد فلنا فيه توثيق ابن تيمية .

قال : (كان الجنيد رضي الله عنه سيد الطائفة إمام هدى.).

وكررها بعد ، فقال : (والجنيد وأمثاله : أئمة هدى .)[(١)]

وقال : (كان الجنيد رضي الله عنه سيد الطائفة ، ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً .) [(٢)] .

ولما بيّن الفرق بين الإرادة الكونية القَدَرَية ، والإرادية الدينية ، قال :

(وكانت هذه المسألة قد اشتبهت على طائفة من الصوفية ، فبيّنها الجنيد رحمه الله لهم ، من اتبع الجنيد فيها كان على السداد ، ومن خالفه ضل .) [(٣)] .

وعدّه في أخرى ضمن المشايخ الموثوق بهم [(٤)] .

ووصفه أيضاً بأنه شيخ عارف مستقيم [(٥)] .

وأثنى ابن القيم عليه كذلك ، في مواضع من المدارج [(٦)] .

---

(١) (٢) (٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥ / ٤٩١ ، ١٠ / ٦٨٦ ، ١١/ ٢٤٥ .

(٤) رسالة سماع الصوفية / ٦٧٢ .

(٥) الرد على المنطقيين / ٥١٥ .

(٦) مدارج السالكين ٢ / ٢٧٦ / ٥١١ ، ٣ / ١٢١ .

● الكيلاني القدوة

وذكر ابن تيمية الشيخ عبد القادر ، فوصفه بأنه :
(من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر . ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والارادة النفسية .)[1] .

وعدّه في ثنايا كلام آخر من (أئمة الدين .)[2] .

ثم جعله في جملة (المشايخ أهل الاستقامة .)[3] .

وسمّاه ابن القيم : (الشيخ العارف القدوة .)[4] .

● غنيمة الزهاد لنا فيها سهم ... !

فها قد بان لك أن سلسلتنا هذه لا تعتمد إلا على ثقة نال تزكية أئمة نقاد الرجال .

والحقيقة أن المسلم يستطيع أن يوسع دائرة اعتماده ، ويستفيد من بعض أقوال لآخرين من الزهاد غير هؤلاء ، ابتعدوا عن كفر وحدة الوجود وما يقاربه من البدع الغليظة ، لكنهم لم يستطيعوا الخلاص من بدع دون ذلك أدّت بهم إلى بعض الشطحات والمجازفات ، فان هذا الاعتماد الموسع لأقوال مثل هؤلاء المخلّطين قد أجازه ابن القيم ، واعتبره منهج أهل

---

(١) (٢) (٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠ / ٤٨٨ / ٥٠٧ / ٥١٦ ، وراجع أيضاً ٨ / ٣١٩ .

(٤) مدارج السالكين ١ / ١٩٧ .

العدل والانصاف ، وقرّر أن :

(هذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس :

احداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وانكروها غاية الانكار ، واساءوا الظن بهم مطلقاً . وهذا عدوان واسراف ، فلو كان كل من أخطأ أو غلط : ترك جملة ، واهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات ، والحكم ، وتعطلت معالمها .

والطائفة الثانية : حجبوا بما رأوه من محاسن القوم ، وصفاء قلوبهم ، وصحة عزائمهم ، وحسن معاملاتهم ، عن رؤية عيوب شطحاتهم ، ونقصانها ، فسحبوا عليها ذيل المحاسن ، واجروا عليها حكم القبول والانتصار لها ، واستظهروا بها في سلوكهم .

وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون .

والطائفة الثالثة : وهم أهل العدل والانصاف ، الذين اعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل ذي منزلةمنزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح ، بل قبلوا ما يقبل ، وردوا ما يرد .) (١)

ثم قال مؤكداً منهجه الوسط هذا :

أن (البصير الصادق يضرب في كل غنيمة بسهم ، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها .) (٢)

---

(١) (٢) مدارج السالكين ٢ / ٣٩ / ٣٧٠ .

وقد كان (مدارج السالكين) لابن القيم ، ذلك الكتاب الرائع ، أوضح ثمرة لمنهجه هذا .

ومع ذلك ، فأننا آثرنا التشدد ، وعزفنا عن سعة منهج ابن القيم ، وحصرنا أنفسنا في دائرة الثقات فقط ، حباً في أن لا نترك لِناقد مجالا ، فلم نقرب الضعفاء من أصحاب الشطح ، ولا ذكرنا كتاباً فيه مدحهم وذكر أقوالهم إذا اضطررنا لنقل أقوال الثقات منه ، احتياطاً ، وحذراً أن يعتقد الداعية الناشيء الصلاح المطلق لهذه الكتب المشوبة ، أو يظن أننا نزكيها ونجيز له مطالعتها .

● إحياء يقتبس من إحياء

الاّ (احياء علوم الدين) للغزالي ، إن أصرّ المتشدد على اعتبار أخطائه شطحاً ، فان السهم في غنيمته مؤكد لكل من يطلبه ، وما زاد ابن تيمية خلال (الرد على المنطقيين) و (مجموع الفتاوى) على أن ناقش بعض تأثراته بالاشاعرة ، ووجدنا من السهل علينا وعلى الناشيء تجنب ما في الاحياء من احاديث ضعيفة ، أو دعوة إلى مبالغة في الزهد يذهب فيها إلى أبعد من مجرد التقلل ، وآثرنا أن نسلك مسلك أبي الحسن الندوي ، حين رأى أنه :

(على ما تُعُقِّبَ على الغزالي في الاحياء من ايراد احاديث ضعيفة ، بل موضوعة في كثير من الاحيان ، واشياء من كلام الصوفية الممعنة في الغلو وهضم النفس وترك المباحات ، وقد لا تتفق مع أصول الدين . ومع ما ورد فيه من مواد كلام

الفلاسفة ، إلى غير ذلك من مآخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزي ، وشيخ الاسلام ابن تيمية ، مع اعترافهما بفضل الكتاب ، فان كتاب الاحياء في مقدمة الكتب الاسلامية التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كل عصر وجيل ، وأثرت في النفوس تأثيرا لا يعرف إلا عن كتب معدودة ، ولا يزال الكتاب الذي يكثر قراؤه والمعجبون به والمتأثرون به في أكثر البلاد ، ولا يزال ثروة زاخرة في الدين ، ومصدراً قوياً من مصادر الإصلاح والتربية .) [1]

ولا نجادل في أن الداعية الناشيء ، مكلف بأن يكون له كثير نظر في القرآن ، والصحيحين وشروحهما ، قبل أن يبيح لنفسه النظر في الاحياء وكتب الزهد والرقائق ، وأن يقدم بين يدي مطالعته لها مطالعة (مدارج السالكين) لابن القيم ، و (تلبيس ابليس) لابن الجوزي ، وطائفة من كتب ابن تيمية ، ليتجنب العمل بما يرى في كتب الزهد من احاديث ضعيفة ، واصطلاحات تحمل أكثر من وجه ، ورياضات ذكروها لم يأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه .

وأما كتب من اعتقد وحدة الوجود ، ولهج بها ، وجعلها ديدنه ، واقتفى أثر الحلاج والبسطامي وابن الفارض ، فالواجب اطّراحها ، ولا بد أن يكون داعية الإسلام في عافية مما فيها ، وقد طهرت هذا الكتاب من ذكرهم وذكر أقوالهم تطهيرا .

---

(١) رجال الفكر والدعوة / ٢٤٦ .

● قدوات .. ..

ثم أني تتبعت بعد كتب الزهد : سِيَر الدعاة من الفقهاء والمحدّثين والأمراء ، في تاريخ الطبري ، وتهذيب التهذيب ، وطبقات ابن سعد ، وطبقات الشافعية ، وطبقات الحنابلة ، وتاريخ بغداد ، وأمثالها ، واستللت منها فوائد كثيرة ، أضفتها إلى ما اقتبسته من الحديث وأقوال الزهاد ، فكان ماشاء الله من النص القديم المبارك ، الجامع لفقه أطباء القلوب من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين هم خير الناس ، فان أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس ، واولئك خير أمة محمد .

● سادة وفتوح

وعرجت بعد ذلك على إنتاج العصر الحديث ، ولباب أقوال قادة الحركات الاسلامية المعاصرة ، فبدأت بأبرك وأصفى وأصدق كلام فيه ، كلام الامام البنا رحمه الله . ومررت بما كتبه سيد ، والأستاذ المودودي ، واعلام من الدعاة إلى الله ، وآخرين من الثقات الذين ما كانت مشاعرهم بعيدة عن الدعوة والدعاة ، كمصطفى صادق الرافعي ، وعبد الوهاب عزام ، وغيرهم .

وكان بعض اكثار في اقتباسي عن سيد ، فانه – كما وصفه الأستاذ الندوي – :

(من فتوح الاسلام الجديدة .) [1] .

ومن عرف رسائل الامام البنا ، وميّز عبارات المودودي في (الجهاد) و (منهاج الانقلاب الاسلامي) و (نظرية الاسلام السياسية) : بدا له بوضوح أثرهما العميق في كلام سيد في : التجمع الحركي ، والقاعدة الصلبة ، والمفاصلة ، وتكشفت له أصول الكثير من لفتاته وعباراته .

ويبدو لي ، أن سيد قد قصد من ظلاله المنقح * أول ما قصد : شرح ورسم خطوط هذه القواعد الحركية في التجمع ، ومفاصلة الجاهلية ، وتربية الصفوة المؤمنة المختارة ، مقدماً لدعاة الاسلام مادة الوعي الحقيقي الصائب .

وستقوم هذه المواعظ بانتقاء أهم ما تناوله قلم سيد في الفقه الحركي ، في مختلف المناسبات التي أتاحتها الآيات ، مع شرح فقه الظلال بما يماثله مما في كتبه الأخرى، وبما يكملها مما في رسائل المودودي ، وبما يكشف عن أصوله عند الصحابة والتابعين وفقهاء الصدر الأول .

وإنما اقتصرت في النقل عن هؤلاء الافاضل جميعاً على ما يحتاجه الدعاة لاتقان عملهم ، وما يلزمهم من أخلاق المؤمنين

---

(٢) مذكرات سائح في العالم العربي ر ٩٠ .

* نقح السيد واعاد كتابة الأجزاء الأولى حتى الرابع عشر ، واعدم قبل اتمام التنقيح .

لقطع الطريق ، من صبر ، وشجاعة ، واخوّة ، وخوف من الله ، ورجاء لرحمته ، وزهد ، وقِصَر أمل ، وطاعة قادة ، ثم ما يجب أن يداووه من أمراض القلوب ، من غرور ، وكبر ، وهوى نفس ، ونكث بيعة ، اضافة إلى بيانهم وجوب العمل الجماعي ، وفنونه ، وأصول تربية الآخرين .

وهكذا ظفرنا بكل معنى حسن أشار اليه يحي بن معاذ الزاهد لمّا قال :

(أحسن شيء : كلام رقيق ، يستخرج من بحر عميق ، على لسان رجل رفيق .) (١)

واحسبه يعني مثل هذا الكلام الرقيق ، الذي استخرجته لك — أيها الداعية — من بطون هذه الكتب العميقة . وغيري إنما خلط ما استخرجه من الساحل بما ظفر به من الأعماق ، وأبيت انا الا أن استخرج لك من الأعماق فحسب ، ولم ارض الاّ كل نادر بليغ . وستعلم كم من الرفق كانت تحمله قلوب هؤلاء الرجال الذين أهدوا لك ثمرات تجاربهم ونتائج تأملاتهم ، فخلدت كلماتهم وسرت في الناس ، معلنة عما لها من الإتصال بسند الحق .

(ولن تخلد الكلمة على الأجيال الاّ أن اتصلت بالحق والخير ، وكان لها من قوانين الله في خلقه سند ، ومن الهامه لعباده مدد .

(١) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٠٩ .

وربَّ بارقة يرمي بها سلطان مسلط ، أو صنم مشهور ، فتدوي حيناً ، وتأتلق زماناً ، ثم تصمت وتنطفىء ، وتكون كالشهاب يحور رماداً بعد التهاب ، بما كان دويّها من صوت الباطل لا الحق ، وائتلاقها من زخرف الكذب لا الصدق .

ولا ينطق بكلمة الحق الخالدة الا عقل مدرك ، وقلب سليم . الاّ قائل يعتد بنفسه ويثق برأيه ، فيرسل الكلام أمثالا سائرة ، وبينات في الحياة باقية ، لا يصف وقتاً محدوداً ، ولا أمراً موقوتاً ، ولا إنساناً فرداً ، ولا حدثاً واحداً ، ولكنه يعم الأجيال والأعصار ، والبلدان والأقطار .

وعلى قدر عظم القائل : تجد هذا العموم في قوله ، يبغي أن يجعل كلماته للناس منهاجاً ، وفي ظلمات الحياة سراجاً وهاجاً .) [١]

● ربّ شعر يرتاع منه الكلام

ثم اني وجدت بعض الكتب الاسلامية الحركية التربوية قد فصلت بلامبرر بين النثر والشعر ، وحرمت المربين من استعمال مئات الابيات والقطع من شعر الرقائق ، أو شعر الحماسة ، أو شعر العقيدة والفكرة ، مما قاله ثقات الشعراء القدامى والمحدثين ، وشعراء هذه الدعوة المباركة . والمرء ربما (يسمع المعنى نثراً ، فلا يهز له عِطفاً ، ولا يهيج له طرباً ،

---

(١) الشوارد لعزام / ٣٤٠ .

فإذا حوّل نظماً : فرّح الحزين ، وحرّك الرزين . . وقرب من الأمل البعيد .) [١]

و (ان من الشعر حكمة) كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم .

(وانما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت : يراد منه اضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر .) [٢] .

لهذا ملنا إلى إيراد الأشعار ، والاستعانة بها في هذه المواعظ ، قاصدين أن نضيف إلى المعاني التي يستحسنها فكر الداعية نوعاً من استحسان نفسه لها ، ليرسخ المعنى ، ويطول تأمله وتذكره .

وليس أدلّ على أهمية الشعر في نصر العقائد وترويجها ما كان له من دور في اسعاف أهل البدع وترويجها لدى العوام ، مضاددة لمساعي ابن تيمية وتلامذته عندما انبروا لتفنيدها ودمغها بحجج السنة الغراء .

(ولاريب أن منطق ابن تيمية القوى أثرّ أثره ، ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نضرة الشعر وفتنته .) كما يقول شاعر الإسلام محمد اقبال . [٣]

وهو كما قال ، فإن الذي قلل من سريان كلام ابن تيمية

---

(١) خريدة القصر / القسم العراقي ١/ ٢٠٢ .
(٢) وحي القلم للرافعي ٣ / ٢٨٥ .
(٣) كتاب محمد اقبال لعبد الوهاب عزام / ٥٢ .

في أوساط العامة هو ما كان عليه أئمة الضلالة الداعين إلى البدع من روعة البيان ، ورقة الشعر ، وتمكنهم فيه ، حتى سحروا قلوب الناس بشعرهم من حيث لا يشعرون ، ولم يتهيأ لابن تيمية شاعر مبدع يسانده .

ان للشعر هذه القابلية في اسعاف من يستعمله وتزيين الخطأ أو الصواب ، ونصرة الحق أو الباطل ، على حد سواء ، في كل شؤون الفكر وحقائق الحياة ، إذ النفس الانسانية تحب الجمال ، والشعر جمال كله ، وبإمكانه أن يزيد الحق والصواب نضرة وزهاء ورونقاً ووضوحاً ، أو أن يخفي ما يشين صفحة الباطل والخطأ والوهم من خروق ونتوء واعوجاج ، فينطلي عيبه بالتزويق . ولا يتخلص من أسر الشعر وتأثيره الا قلب عامر بالايمان عمراناً كافياً .

إن هذه الظاهرة الشعرية هي التي دفعتني إلى الاستعانة بالشعر في هذه المواعظ . ولئن كان يقلل من تذوق بعض الدعاة لهذا الشعر العربي الرصين الواضح الذي اخترته ، ما أصابهم من هذا الذي أصاب عموم الجيل العربي الجديد من ضعف الحاسة الأدبية ، فاني أرجو أن يكون عملي هذا محاولة للارتفاع بهذا الذوق لدى الدعاة . ولئن كان باعي في الشعر قصيراً ، فان في انتاج الثقات غنى وبركة . ولئن كان أكثره منشوراً من قبل ، فان في هذا الانتقاء تقوية وحفظاً وترويجاً وبعثاً جديداً له .

• سلف وأتْباع

ولنا اقتداء في استعمال شعر الرقائق بالامام أحمد ، فقد كان يحفظ شيئاً منه املاه على ثعلب ، الأديب المشهور ، وسمعه أصحابه ينشد الشعر ، ووقف الشعراء بين يديه أيام محنتـه يمدحونه ، بل تنسب اليه قطعة نظمها في عتاب علي بن المديني حين لم يصبر معه على العذاب (١) .

وقال له أحد أصحابه :

(يا أبا عبدالله : هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار ، أي شيء تقول فيها ؟

فقال : مثل أي شيء ؟

قال : يقولون :

إذا ما قال لي ربـــي أما استحييت تعصيني ؟
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيـني ؟

فقال : أعد علي .

قال : فأعدت عليه ، فقام ودخل بيته ، ورد الباب ، فسمعت نحيبه من داخل البيت ، وهو يقول :

إذا ما قال لي ربـــي اما استحييت تعصيني ...)(٢)

وأما استعارة بعض الأبيات التي قيلت في مدح اناسٍ ثقات من الخلفاء والقادة والكرماء لوصف دعاة الاسلام بها ، فذلك

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي / ٢٠٥ .

(٢) تلبيس ابليس لابن الجوزي / ٢١٨ .

مما لايأباه العرف المأثور عن السلف ، ونقتدي بفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع أبيات زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان المرّي :

دع ذا وعدِّ القول في هَرِمٍ   خير الكهول وسيدِ الحضر

في أبيات أخرى .

فقال عمر : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

وبهذه القناعة في جدوى الشعر وجوازه : اقتبست الكثير من دواوين القدماء ، ثم من دواوين وليد الأعظمي ، ومحمود آل جعفر ، والأميري ، وعبد الوهاب عزام ، وغيرهم .

وكذلك أضفت شيئاً من شعر اقبال ، شاعر الاسلام الفحل مما في دواوينه : (رسالة المشرق) و (الأسرار والرموز) و (ضرب الكليم) ، فدخل شعره لأول مرة في المواعظ العربية من بعد ما ترجمه عبد الوهاب عزام .

واقبال شاعر صحيح العقيدة ، عميق الرؤية ، سليم التفكير . وقد وثقه أبو الحسن الندوي وكرس له دراسة سماها : (روائع اقبال) ، كما وثقه المودودي في مقال مهم نشرته مجلة البعث الاسلامي الهندية [2] ، بيّن فيه فضل اقبال في توجيه الجيل الذي اسرته الحضارة الغربية ، وإبعاده عن ضيق القوميات ، وتأكيد صورة الدولة الاسلامية لديه ، حتى إن الأستاذ المودودي وصف عمل اقبال بأنه عمل عظيم في مجال الاصلاح ، له قيمة

---

(١) الأغاني ١٠ / ٣٠٤ .

(٢) مجلة البعث ، مجلد ١٦ عدد ٤ الصادر في شوال ١٣٩١ هـ .

لا ينساها التاريخ الاسلامي ، وأنه استطاع إنقاذ الجيل المسلم الذي كانت تتلقفه فتن جديدة ، ونظريات مختلفة .

وفوق هذا ، فقد كان لاقبال في أواخر حياته عمل مهم ضخم جداً في ميزان الاسلام ، وهو تكريسه قلمه لفضح القاديانية والأحمدية ، والتحذير منهما ، ووجدته شديد الانكار على زيغ وحدة الوجود ، خلاف ما يفهم البعض عنه .

ان صفاء فكر اقبال حدا بسيد إلى أن يقول :

(قد رأيت بين أفكار محمد اقبال وبين وجهة نظري توافقاً غريباً ، قد تخطى المعاني إلى الكلمات ، خصوصاً فيما يخص الوجدان والروح . واني لشديد الشوق إلى دراسة اقبال ونصوصه .) [1] .

● استرسال مع فطرة الجمال

والمجاز والجناس والتشبيه مثل الشعر ، وصاحب الذوق يدرك أن حديث الحماسة يكون أبعد تأثيراً إذا ازدان بهذه الفنون البلاغية ، ولذلك اقتبست منها ما يخلو من التكلف .

(وما المجازات والاستعارات والكنايات ، ونحوها من أساليب البلاغة ، ألا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية ، إذ هي بطبيعتها تريد دائماً ما هو أعظم ، وما هو أجمل ، وما هو أدق . وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفاً وتعسفاً ووضعاً للأشياء في غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل

(١) مذكرات سائح / ١٤٩ .

فارغ ، واساءة في التأدية ، وتمحل لاعبرة به ، ولكن فنّيـــة النفس الشاعرة تأبى الا زيادة معانيها، فتصنع الفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها ، فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب الفاظه وتـــرداد معانيه الا تهيئة لهذه الزيادة في شعور النفس .)[1] ، فمـــن الناس (من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر . واحوج الناس إلى البلاغة : الواعظ ، ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ قدر الملح في الطعام ، ثم يجتذبهم إلى العزائم ، ويعرفهم طريق الحق .)[2] .

• قادة انا لهم تابع

ومن عجب أن يجعل البعض اعتماد المؤلفين على النقل من كتب معاصريهم عيباً يعيب به أسلوبهم ، ويقلل به من قيمـــة مؤلفاتهم ، ويفرح بمن لا ينقل ، ولو كان يصوغ أفكار غيره بالفاظه الخاصة . وهذا إنما مردّه : البطر العلمي ، فان الكاتب لا بد له من الاستفادة من مجهود غيره ، فيستعير منه الالتفاتة الجميلة ، والمصطلح الناجح ، والتعبير البليغ . وقد اقتبـــس السيد في الظلال نصف رسالة الجهاد للمودودي في مكان واحد.

وفي هذه السلسلة كان لا بد مع هذه الاستعارة العرفيـــة

---

(١) وحي القلم ٣ / ٢١٣ .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي / ١٠٠ طبعة محمد الغزالي .

من أن أتواضع أمام فحول الفقهاء وقادة الدعوة ، وأن أترك لهم التعبير عن أصول العمل الاسلامي ، مقتصراً على جمع ما تفرق من أقوالهم ، محيياً له بالتنسيق ، مضيفاً شيئاً من الفوائد من خلال التعقيب عليه ، فادع الداعية أمام كلام من اتفقت كلمة الدعاة على توثيقه ، والقلوب على حبّه ، بدل وضعه أمام كلام مجهول مثلي ، وما أنا بالذي يقرب شأوهم ، ويداني فضلهم ، وإنما سوغت لنفسي الاستعجال في المشاركة في تبيين فقه الدعوة ، وأقحمت قلمي إقحاماً في مجالاته : سدّاً لذريعة حرمان الدعاة من معانٍ ألمس لزوم الاسراع في تذكيرهم بها ، أنسى بعضهم اياها ماهم فيه من خلاف أو حرص دنيوي ، غير المعاني الأخرى التي أوردتها لهم ، مما يحتاجون لها في تفهيم الجدد، وتربية الشباب .

وذلك الذي عنيته إذ وصفت عملي بأنه (احياء) لفقه الدعوة ، فهو احياء لكلام المعاصرين بالتنسيق والموازنة ، كما أنه احياء لكلام أولئك القدماء بالبعث من بعد نسيان ، في محاولة اجتهادية تكميلية من خلال الجمع بين الكلامين ، نسأل الله تعالى السلامة والصواب فيها .

فلأن شطراً كبيراً من هذه الاستلالات يمثل أسطراً خفية أرجعناها بطول التفتيش والتنقيب في كتب التراث إلى ميـــدان التداول والمدارسة ، أو يمثل أسطراً مهمة من بين بحوث طويلة للمعاصرين : كان عملنا كالاحياء .

فعنوان (احياء فقه الدعوة) وإن أشعر بتقليد الغزالي في احيائه لعلوم الدين ، الا أن له من حقيقة دلالة لفظه نصيباً كبيراً .

● خلاصة متكاملة

وهكذا اكتملت هذه المواعظ في الدعوة وصفات الداعية ، والمدونة اللطيفة في أعمال القلوب وترقيقها .

وأظنها أول مواعظ شاملة تنخل وتغربل القديم ، وتستفيد من الجديد ، والحماسة تمزج النثر بالشعر ، مجرّدة فقه العمل الحركي وأدب الرقائق والحماس دون فروع المعاملات ، مسترسلة في الخطاب على الأسلوب الحديث غير مكتفية بإيراد الأقوال المستحسنة في تعداد جامد استسهلته كتب المواعظ القديمة ، مع هجر كل كلمة يحتاج القارىء إلى قاموس لغوي لفهمها ، والنقاء من الحديث الضعيف ، والاسرائيليات ، والاساطير ، وقصص الكرامات المبالغ فيها ، والبعد جهد الامكان عن تكرار اللفظ .

فلكل فصلٍ واعظ ضربٌ من التعبير أوحدْ
لا أُعْمِلُ اللفظ المكرَّرَ فيه والرأي المردَّدْ

فهنا تجد :

رصانة القديم ، وشرحه الحديث .

وبليغ النثر ، ورفيع الشعر .

والمجاز الرمزي ، ومنطق التعليل .

والعربي من البحوث ، والمعرَّب المترجم .
في جمع متناسق يهديك زبدة التذكير ، وخلاصة الفقه .
وحسبنا ذلك وكفى .

فدونك والارتياد لنفسك وللشباب الذين معك من غُرَر الفِكر ، واغترف علماً بغير رِشاء ، واستعد لاستقبال كل أصيل ، فإني لم أُبقِ حَلْبَة منطِقٍ الا وقد سبقت سوابقَها اليك جيادي .

ولقد بدأنا معك اليوم في هذه الحلقة ببيان ضرورة الانخلاع عن السلبية ، ووجوب انكار المنكر في عمل جماعي منظم ، وسنطرق في الحلقات التالية إن شاء الله تعالى أبواب الجهاد ، والزهد ، وأصول التربية ، والتحذير من الفتن وسبل النجاة منها ، واحاديث عامة في الحث على العمل والتخلق بأخلاق المؤمنين ، مع قصة حركية واقعية طويلة مستلة من التاريخ الاسلامي الحديث تروي امتزاج الوعي السياسي ببطولة فذة ، ومباحث أخرى .

وليلتفت الأخ الداعية إلى ضرورات عدة حدت بنا إلى تجزيء هذه المواضيع وعدم نشرها في كتاب ضخم واحد ، مراعياً التكامل في معانيها ، ناظراً إلى ما في طبيعة كل حلقة من استدراك على الحلقات الأخرى ، فالدعوة إلى الزهد لا تعني استساغة الزهد المبتدع وهجر الجهاد ، والدعوة إلى الجهاد لا تعني التهور والمجازفة ، كما أن المبالغة في الحث واتعاب البدن في العمل لا تؤخذ على ظاهرها بعيدة عن ضوابط التربية .

ولا بد أيضاً ، خلال كل ذلك ، من الالتفات إلى حقيقة الآراء المطروحة ، وكونها من الآراء الشخصية البحتة المعبرة عن مفاهيم كاتبها فحسب ، وما هي إلاّ اجتهادات فردية لا تمثل رأياً رسمياً لجماعة من الجماعات الاسلامية العاملة ، ولا تتحمل قياداتها مسؤولية خطأ يرد فيها ، أو غلو تتورط فيه ، أو تساهل وتفريط تجنح اليه .

● عمق وارتفاع

وبعد ياداعية الإسلام :

فقد قيل : إن قائل الحكمة وسامعها شريكان ، أولاهما بها من حقّقها بعمله . فحقّق هذه الحكم بعملك : تكن أولى بها ، وأجدر أن تنسب اليك .

وابدأ بإصلاح نفسك : يصلح الذين معك من ناشئة الدعوة ، فانها وصية الامام الشافعي ، أرشد بها مؤدب أولاد هارون الرشيد ، فقال :

(ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين : إصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بيدك . فالحسن عندهم ما تستحسنه ، والقبيح عندهم ما تركته .)

فانظر إلى قوله : القبيح عندهم ما تركته !

لم يقل له : القبيح عندهم ما قلت لهم إنه قبيح ، بل ما لم تعمل به ولم تقربه .

وقد سئل الامام أحمد عن الرجل يكثر من كتابة الحديث

وطلبه ، أيسوغ له ذلك ؟

فقال :

(ينبغي أن يكثر العمل به على قدر زيادته في الطلب) .

وهذه الصفحات زيادة في العلم ، سوّغت لنفسك حيازتها ، فوجبت عليك زكاتها ، على مذهب الامام أحمد .

فامض قُدُماً ، واقتحم . . . .

أنت نشءٌ ، وكلامي شُعلٌ عَلَّ شدوي مضرم فيك حريقا
ليس في قلبي إلاّ أن أرى قطرة فيك غدت بحراً عميقاً
لا عَرى الروح هدوءٌ ، ولتكن بحياة الكدّ والكدح خليقا

وما ارتفع صوت الحادي يوماً ما لرفقة أولي صَمَم ، ولا ارتفع الفلك الأعلى لغير أهل الشموخ . . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المنطلق

١ .... نرفض الأهواء

(إياكم وكل هوى يسمى بغير الاسلام) .

صرخة تحذير صرخها المحدث الثقة ميمون بن مهران رحمه الله ، حين خاف ان يخدعنا بريق الاسماء المغايـــرة ، ما زال صداها مسموعاً عبر الأجيال .

فهو ينبهنا إلى ان كل ما هو (غير الاسلام) لا يعدو ان يكون هوى من الاهواء ، مهما تعدد شكل هذا الغير ، وأياً كان الزمن الذي يظهر فيه .

وهذا هو المأثور عن جميع ائمة المسلمين ، ليس عندهم الا حق واحد ، وهو الوحي ، وما عداه فهو الهوى المذموم الذي لا يمدح شيء منه ولا يلتحق بالحق ، ولا يجوز للمسلم أن يحتكم اليه أو يطمئن اليه قلبه .

● وحي ... أو الأهواء

وقد استوفى الإمام الشاطبي تقرير ذلك في إيجاز ، فقال في الموافقات :

(قد جعل الله اتّباع الهوى مضاداً للحق، وعدّه قسيماً له، كما في قوله تعالى: «يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » الآية .

وقال تعالى : « فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هي المأوى . »

وقال في قسيمه : « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى . »

وقال : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الاّ وحي يوحى . »

فقد حصر الأمر في شيئين : الوحي ، وهو الشريعة . والهوى . فلا ثالث لهما .

واذا كان الأمر كذلك فهما متضادّان . وحين تعيّن الحق في الوحي : توجه للهوى ضده . فاتباع الهوى مضاد للحق .

وقال تعالى: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم.»

وقال : « ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . »

وقال: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم.»

وقال: «افمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله، واتبعوا أهواءهم . »

وتأمل. فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فانما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه. وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس انه قال : ما ذكر الله الهوى في كتابه الاّ ذمه .

فهذا كله واضح في أن قصد الشارع : الخروج عن اتباع الهوى)[1] .

● ليس من طريق وسط

وما يزال ذاك أمر الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه سلم ، فقال جلّ من قائل :

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ، ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون . »

(فاما شريعة الله ، واما اهواء الذين لا يعلمون . وليس هنالك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والاهواء المتقلبة ، وما يترك أحد شريعة الله الاّ ليحكم الاهواء، فكل ما عداها هوى يهفو اليه الذين لا يعلمون .)[2]

(انها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها اهواء منبعها الجهل . وعلى صاحب الدعوة ان يتبع الشريعة وحدها ، ويدع الاهواء كلها . وعليه ألاّ ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الاهواء .)[3]

ثم ما يزال ذاك امره تعالى إلى المؤمنين ، مخاطباً لهم أن :

---

(١) الموافقات ٢ / ١٢١ .

(٢) (٣) في ظلال القرآن ٢٥ / ١٣٦ .

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان . »

(إما هدى الله ، واما غواية الشيطان .

وبمثل هذا الحسم يدرك المسلم موقفه ، فلا يتلجلج ، ولا يتردد ، ولا يتحير بين شتى السبل ، وشتى الاتجاهات .

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن ان يختار واحداً منها ، أو يخلط واحداً منها بواحد .

كلا ! إنه من لا يدخل في السلم بكليته ، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته ، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ، ومن كل منهج آخر ، ومن كل شرع آخر ، ان هذا في سبيل الشيطان ، سائر على خطوات الشيطان .) [1]

● فتنة ... وحذر

وقد سمى الامام أحمد بن حنبل رحمه الله ردّ الشيء الواحد من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم زيغاً ، فقال :

(نظرت في المصحف ، فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعاً .)

ثم جعل يتلو : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة . »

وجعل يكررها ويقول :

(وما الفتنة ؟ : الشرك .

---

(١) الظلال ٢ / ١٤٢ .

لعله اذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ ، فيزيغ قلبه فيهلكه) [1] .

• انكار بعض الشريعة كفر

ولكن الزيغ درجات .

فزيغ هو كفر محض ينتقل صاحبه إلى ما وراء حائط الاسلام ، يحصل ويتحقق بأن يعلم امرؤ علماً وافياً بحكم شرعي في العقيدة أو الأحكام ، ويعلم ثبوته بآية في كتاب الله أو بكلام متواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعي عدم إيمانه بصلاح هذا الحكم الشرعي للعمل به ، ويصفه بأنه يفوت المصالح ، أو بأنه لا يتناسب مع التطور ، وما إلى ذلك .

فهذا هو من عنته الآيات بأنه يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وما من خلاف بين المسلمين في تكفيره .

فشيخ الاسلام ابن تيمية مثلا ، يذهب في كلام صريح إلى تكفير هؤلاء أصحاب الايمان الجزئي ، ويأتي بأدلة من القرآن الكريم ، ويعلن ، رحمه الله ، عدم اقتصار صفة الكفر على الملحد ومنكر جميع الرسالة ، بل ان :

(المؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر ايضاً ، كما قال تعالى :

« ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ، **ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ،**

---

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لابن تيمية / ٥٦ .

ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوابالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً . »

وقال تعالى يخاطب أهل الكتاب :

« ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وان يأتوكم اسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم اخراجهم ، **افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب** وما الله بغافل عما تعملون . »

وقال تعالى :

« الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، **يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به؟** ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيداً . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما انزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . »

وقال تعالى :

« الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، **ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** ؟ أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . »)

ثم ينبه ابن تيمية ، بعد سرده هذه الآيات ، إلى ان الله تعالى خلالها ، قد :

(ذم الذين أوتوا قسطاً من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها ، كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية – جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم – على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله . كما ذم المدعين الايمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم الى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون الى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله ، كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الاسلام وينتحله ، في تحاكمهم الى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم ، أو الى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الاسلام من ملوك الترك وغيرهم ، واذا قيل لهم : تعالوا الى كتاب الله وسنة رسوله : اعرضوا عن ذلك اعراضا)[1] .

فابن تيمية – كما ترى – يفسر الطاغوت الوارد في الآية بأنه صاحب كل مقال يخالف الكتاب والسنة ، وان سمى نفسه فيلسوفاً أو ملكاً ، والايمان بالله ، دون الايمان برسوله وأوامره وتعاليمه إنما هو تفريق يؤدي إلى الكفر ، ولا اعتراف بمن يريد أن يتخذ الحل الوسط والدين المخلط المرقع ، أولئك الذين وصفتهم الآية بأنهم يريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أي سبيلا ثالثاً وسطاً بين سبيل الاسلام وسبيل الآراء البشرية ، فيجمع من هذا ومن هذا مزيجاً مركباً يحكم الناس به .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢ / ٣٣٩ .

وكثرة من حكومات البلاد الاسلامية ، والأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية اليوم ، لا تصرح بالالحاد ، وانما تدعو الى مناهج وأنظمة منافية لبعض أحكام الاسلام في الحلال والحرام ، فتحل الكثير مما حرم الله ، وتحرم الكثير مما أحل الله ، عالمة بوجه مخالفتها للشريعة ، قد بيّن علماء الاسلام ورجال الحركة الاسلامية لها الخلط الذي وقعت فيه ، والتبعيض ، والايمان الجزئي ، ومع ذلك أصرت على المخالفة والدعوة إلى أهوائها .

فهذا كفر لا ريب فيه ، والعياذ بالله .

● لا نكفر مسلماً بغير برهان

ثم هناك من الزيغ ما هو دون ذلك وأصغر .

قال ابن تيمية :

(قال غير واحد من السلف :

كفر دون كفر ، ونفاق دون نفاق ، وشرك دون شرك) [1] .

درجات متعددة من العصيان ، منه اللمم ، ومنه الكبائر ، وما بينهما ، يرتكبها المسلم شهوة ، في ضعف من الهمة ، وبعد عن المروءة ، من دون أن يخطر على باله نفي ما أتت الشريعة به ونخالفه . أو يفعل ذلك جهلاً بأحكام الشريعة ، لا يكلف نفسه عناء الاستفتاء ، وما هو بعناء ، أو يتأول تأولاً .

---

(١) مجموع الفتاوى ١١ / ١٤٠ .

ومحور الاستدلال في هذا عندنا قول البخاري رحمه الله :

(المعاصي من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها ، الا بالشرك ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : انك امرؤ فيك جاهلية) (١) .

فأنت ترى أن استشهاد البخاري بهذا القول النبوي الشريف واضح الصواب ، والمخاطب به : أبو ذر رضي الله عنه ، مع أنه كان من أجلّ الصحابة ، لما حصل منه من تعيير بلال بأمه السوداء .

فالمعصية الواحدة هي شعبة من الجاهلية كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلما زادت معاصي المسلم زادت نسبة ما فيه من الجاهلية ، ولكن لا ينتقل الى الجاهلية كلية الا بالشرك في العبادة أو اعتقاد حل بعض ما حرم الله أو اعتقاد حرمة بعض ما أحل الله ، وايمانه ببعض وكفره ببعض .

وهذا هو السر في تشديد النبي صلى الله عليه وسلم على الحذر في تكفير من يظهر الاسلام ، وقوله :

(أيما امرىء قال لأخيه : يا كافر . فقد باء بها أحدهما ، ان كان كما قال ، والا رجعت عليه)(٢) .

وهذا هو السر أيضاً في تشديد الامام حسن البنا على ذلك ، وقوله في الأصول العشرين :

(لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين ، وعمل بمقتضاها ،

---

(١) صحيح البخاري ١ / ١٥ .

(٢) صحيح مسلم ١ / ٥٧ .

وأدى الفرائض ، برأي أو بمعصية ، إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر .)

وهو المفهوم الوارد في الشرح العراقي للأصول العشرين ، وقوله ان :

(تكفير المسلم على وجه يخرجه من الاسلام خطير جداً ، فلا بد من صدور ما يخرجه عن الاسلام قطعاً ، كأن يأتي قولا أو عملا لا يحتمل أي تأويل في كفر صاحبه ، مثل ان ينكر القطعي من الدين ، كوجوب الصلاة ، وحرمة الربا ، أو عدم لزوم التقيد بالاسلام ، أو استهزأ بالاسلام أو بالقرآن ، أو سب الله ورسوله ، أو لوث القرآن بقذر ، أو كذب صريح القرآن ، أو أنكر اليوم الآخر ، أو قال : ان الشريعة صارت عتيقة وذهب زمانها ولا تصلح للتطبيق ولا لزوم لها في الوقت الحاضر ، وغير ذلك ، مما يجعل قائله أو فاعله كافراً قطعاً .

أما إذا صدرت منه معاصي ، كشرب الخمر مع اقراره بأصول العقيدة الاسلامية ، فهو عاص لا كافر . كذلك إذا قال قولا أو عمل عملا يحتمل التأويل فلا نكفره بقوله أو عمله هذا .

ومن الجدير بالذكر اننا نطلق على بعض الأفعال ، أو ترك بعض الأفعال ، اسم الكفر ، كما جاءت بها النصوص الشرعية ، مثل : « ترك الصلاة كفر » . أما تكفير شخص

معين بالذات ، فلابد من صدور ما يكفر به يقيناً ، مثل جحوده فرض الصلاة ، أو استتابته والقول له : إذا لم تصل نقتلك . ويصر على الترك ، ويؤثر القتل ، فهذا دليل خلو قلبه من الايمان ، ويموت كافراً .

كذلك يجب ان نعلم ان الكفر نوعان :

كفر أصغر لا يخرج صاحبه من الاسلام .

وكفر أكبر يخرج صاحبه من الاسلام .

وعلى ضوء هذه التفرقة نستطيع ان نفهم بعض النصوص ، مثل : « من حلف بغير الله فقد اشرك » ، فهذا شرك غير مخرج من الإسلام ، وإنما هو معصية غليظة جداً ، وهكذا .) [1]

● حساسية النفس المؤمنة !

ولكن هذا الحذر في التكفير ، لا يمنعنا من رؤية مدى الانحراف البالغ السعة ، الذي جنح اليه معظم المسلمين .

نعم ، هم من المسلمين .

لكنهم في المعاصي والغون ، قد انحدروا إلى أدنى درجات الايمان ، وتخلفوا عن منازل الفضل .

ووراء ذلك قصة طويلة ، تبدأ من يوم ما بدأت الفتوح والادارة تستهلك تدريجياً تلك الصفوة المؤمنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المندفعة بعد موته لاتمام مهمته في نشر الدين باروع الاندفاع ، المنتشرة مثل شعاع الشمس ،

---

(١) شرح الأصول العشرين / ٥٥ .

تفتح البلاد ، وتحطم الطواغيت ، وتقود الناس إلى الجنة .

فما أن اتت السنوات الاخيرة من القرن الأول حتى كان نوع بطر قد سرى إلى جيل جديد ممن خلف أولئك الأفذاذ ، فلانت له نفوس ، وضعفت عزائم كان أولى لها أن تواصل تحطيم بقية الطواغيت .

ويهيء الله تعالى للأمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، بما حباه من روح عالية ، فيرى في مجرد ذاك البطر القليل والقعود دلالة انحراف عن الحق ، ويستعظم ان تكون أمة الجهاد قد خفّ اندفاعها ، فيقول حزيناً :

(اني اعالج أمراً لا يعين عليه الا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصُح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الاعرابي ، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره.) (١) .

كلمة قالها عمر في حزن عميق ، مع أنه يستلم قيادة أمة تسود الأمم ، وتفيض بمعاني الخير ، وتحكم نفسها عموماً بشرع الله .

انه استكبار واستعظام المؤمن لصغار المعاصي ، وقليل البدع ، وهين الظلم ، وأوليات الترف .

وانها نفس المؤمن في حساسيتها البالغة ازاء معاني العدل والظلم ، والاتّباع والابتداع ، والبذل والدعة .

ولذلك تجد المؤمن أبداً ساعياً في طلب الأفضل الأكمل ، غير مستعد لغض بصره أو كف لسانه عن ميل .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٧ .

• جيلنا المخدوع

ومضت من بعد عمر قرون وأجيال ، نصر الاسلام في حقب منها أبطال من القادة والمصلحين ، وسادت الغفلة في حقب أخرى ، حتى رأينا الأمة في يومها هذا وقد انهكتها خطط اليهود ودول الكفر ، وسلبتها خيرها ، بما اضعفته من إيمانها ، وبدلته من موازينها ، وبما أقصته من حكم قرآنها ، وما فرضته وربت عليه ذراري المسلمين من تصورات مغايرة للاسلام تكسبها مختلف الأسماء وتلبسها متعدد الثياب .

فإن كان في قلب المرء بقية من إيمان ، وأثارة من غيرة ، يأبى معها التنصل من دينه : صرعوه بالتزوير ، وخدعوه بالتمويه ، فيجعلونه أسير ساسة وأدباء ومستشرقين لا فقه لهم ، يتشبثون بنصوص عامة من القرآن والحديث ، وربما من الحديث الموضوع ، لتخريج نظم السياسة والاقتصاد تخريجاً إسلامياً دون ضابط من أصول الفقه وشروط الاجتهاد .

فمحنة المسلمين اليوم لا تقتصر على تسلط أئمة الضلالة فحسب ، بل تعدت ذلك إلى تربية سخرت المناهج الدراسية وكراسي الجامعات والصحف والإذاعات لمسخ الأفكار والقيم ، حتى غدا صيد المخططات في سرور ، يحسب نفسه في انعتاق من اسر القديم ، أي قديم كان .

إن عصاة المسلمين اليوم ضحية تربية أخلدتهم إلى الأرض ، أرادت لهم الفسوق ابتداء ، لتستخف بهم الطواغيت انتهاء .

وإنها خطة قديمة ، يأخذها الطاغوت اللاحق عن الطاغوت السابق ، حتى تصل أصولها إلى فرعون ، (وذلك كما يقول الله سبحانه : « فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين . » . فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ ، وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله ، فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت ، ولا يمكن أن يطيع له أمراً .) [1]

وهكذا أدركوا المقتل الذي عرفه فرعون ، فتواصوا بالافساد ، وأخذوا (يحولون المجتمعات إلى فتات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور ، مشغول بلقمة العيش لا يجدها الا بالكد والعسر والجهد ، كي لا يفيق ، بعد اللقمة والجنس ، ليستمع إلى هدى أو يفيء إلى دين .) [2]

وصارت تلك سياستهم .

(سياسة محاربة المساجد بالمراقص .

ومحاربة الزوجات بالمومسات .

ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر .

ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة) [3]

وهكذا تحول بهذه التربية ذلك الصقر الاسلامي إلى مثل طائر الحجل في وداعته ، كما يقول اقبال .

---

(١) الظلال ٩ / ٤٥ .

(٢) الظلال ٩ / ١٢٢ .

(٣) وحي القلم للرافعي ٢ / ٢٥٨ .

أنه الأدب والترويض الذي استعمله أئمة الضلالة .

أدب :

يَسلبُ السروَ جميل الميـلِ ويرد الصقر مثل الحَجَلِ
يَسحرُ الركبان باللحن المبين ولقاع البحر يهوي بالسفين
نوّمــت الحانُـه يقظتنـا أطفأت انفاسه وقدتنا [1]

وأُشرب الناس الذل . . . .

ان (الانسان بفطرته نفور من الذل ، آب على الحيف ، ولكن تحيط بالناس أحوال ، وتتوالى عليهم حادثات ، فيراضون على الخضوع حيناً بعد حين ، ويسكنون إلى الخنوع حالا بعد حال ، حتى يدربوا عليه ، ، كما يستأنس السبع ، ويؤلف الوحش ، ولكن يبقى في النفس ذرات من الكرامة ، وفي الدماء شذرات من الجمر ، فإذا دعا الداعي إلى العـزة ، وأذن بالحرية ، وأيقظ الوجدان النائم ، وحرك الشعور الهاجد : نبضت الكرامة في النفس ، وبصت الجمرة في الرمـاد ، وأفاقت في الانسان إنسانيته ، فأبى وجاهد ، ورأى كل مـا يلقى اهون من العبودية ، وأحسن من هذه البهيمية .

كل ذل يصيب الانسان من غيره ، ويناله من ظاهـره : قريب شفاؤه ، ويسير إزالته . فإذا نبع الذل من النفـس ،

---

(١) كتاب (محمد اقبال) لعبد الوهاب عزام / ١٦٢ .

وانبثق من القلب ، فهو الداء الدوي ، والموت الخفي .

ولذلك عمد الطغاة المستبعدون الى أن يُشَرِّبوا الناس الذل ، بالتعليم الذليل والتأديب المهين ، وتنشئة الناشئة عليه بوسائل شتى ، ليميتوا الهمة ، ويخمدوا الحمية ، وإذا بيدهم العصا والزمام .) [1]

● الظبي الجفول ! ....

وكان من تمام ما يلزمه هذا الترويض أن يضيقوا على دعاة الاسلام ، ليستبد بالتوجيه التربوي والاذاعي والصحافي ادعياء العلم والشعر والحكمة ، الذين موّهوا أمرهم بأسماء منظمات تبدو في ظاهرها مختلفة ، وطفقوا يزينون للجيل الجديد ، سليل المجاهدين وشبل الأسود ، أن يكون رقيقاً للشهوات والجنس والعيش الرغيد ، وبدأوا يمحون تراث الأمة الذي نهضت به ، ويطمسون قصص العلماء ، حذراً من أن تكون نبراساً للجيل يستدل بها على طريق العمل . .

فذلك قول شاعر الإسلام اقبال رحمه الله :

ليس يخلو زمان شعب ذليل
من عليم وشاعر وحكيم !
فرقتهم مذاهب القول لكن
جميع الرأي مقصد في الصميم :

---

(١) الشوارد ، لعبد الوهاب عزام / ٣١٨ .

علّموا الليث جفلة الظبي وامحوا
قصص الأسد في الحديث القديم
همهم غبطة الرقيق برقّ
كل تأويلهم خداع عليم [1]

وقد كان . . .

هذا هو عنوان خطة الكيد اليهودي والصليبي .

انه تعليم الليث الاسلامي جفلة الظبي .

ومحو قصص أسد الاسلام من العلماء والزهاد والمجاهدين من تاريخ القرون الفاضلة الأولى لهذه الأمة المجاهدة .

وانتجت خطط التربية ذاك الظبي الجفول الذي لم يعد يقتحم ، واستبدل العزم بالتلفت ، والمسارعة إلى الهرب .

انهم هذا الجيل من ابناء المسلمين .

شبل أسد تحول إلى ظبي وديع .

وحر استرقّوه ففرح .

ومرت الخطة ، حتى إن ما نلحظه اليوم لدى بعض المخلصين من ميل إلى العزلة والخوف من التعاون مع بقية المسلمين ليس الا من آثار هذه التربية ، ودليلاً على نفاذها ، وليس ذلك بمستغرب ، فانها إذ نجحت في ابعاد الكثيرين عن الاسلام ، فمن باب أقرب أن تبعدهم عن بعض الاسلام ، وتقنعهم بترديد الكلام ، والاعتزال ، والتماس الحذر من عمل يعرض للمتاعب .

---

(١) ديوان ضرب الكليم لاقبال / ١٠٢ .

وعندئذ بدأت المرحلة الثانية بعد أن أمنوا ، وصارت عملية التحول السريع إلى الجاهلية . . . .

● ضرورة الانتشال السريع

ويقف الداعية المسلم اليوم كذاك الموقف الذي وقفه عمر ابن عبد العزيز ، فيحس بوجوب السعي لانتشال الأمة من تيهها الذي تهيم فيه ، ويدرك أن لامناص له من التقدم للأخذ بقيادها وإن أبت ، ومع ما يكلفه الأمر من التعب والنصب .

فلا ريب أن السواد الأعظم قد انحرف عن غير ما قصد كيد ، ولا إرادة سوء ، وهم أهل لأن يشاركوا الدعاة في إرجاع الأمة إلى إسلامها ، والسير في خط الحركة الإسلامية، والدوران في فلكها، إذا انجلى لهم جانب الانخداع الذي هم فيه.

ثم يقف الداعية وقفة أخرى ، فيجد أن الأمر كما قال عمر ، صعب ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وهاجر عليه الاعرابي .

فماذا يفعل ؟

أيترك المحاولة ؟ أم يؤجل إلى حين ؟

كلا .

ليس من ترك ، فإنه ليس في منهجه شيء من زيف ولا نقص ، وآية كماله هؤلاء الشباب الاحرار الذين يتغنون بالقرآن في عصر المادة والشهوات ، والقليل يؤدي إلى الكثير ، والصبر مفتاح ما انغلق .

وليس من تأجيل ، فان مرور الزمن ليس من صالحه ، وان الطغيان كلما طال امده كلما تأصلت في نفوس المتميعين معاني الاستخذاء ، ولا بد من مبادرة تنتشل ، ما دام في الذين جرفهم التيار بقية عرق ينبض ، وبذرة فطرة كامنة .

انه (ليس أشد افسادا للفطرة من الذل الذي ينشؤه الطغيان الطويل ، والذي يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوماتها ، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد :

استخذاء تحت سوط الجلاد .

وتمردا حين يرفع عنها السوط .

وتبطراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة .)[1]

واذن ، فليس من المصلحة الانتظار .

ولا بد من ضم جدد تتسع بهم قافلة الاحرار .

● الانطلاقة المزدوجة

وهكذا ، لحقيقة وجود هذه الظباء الجفولة ، والعصاة الذين تخلفوا عن منازل الفضل . ولحقيقة كفر بعض حكومات وأحزاب وأفراد الأمة الإسلامية اليوم ، بايمانهم ببعض الإسلام دون بعض : وجب وجود حركة إسلامية ، آمرة بالمعروف ، مستنهضة للهمم ، ناهية عن الانحراف ، كابتة له ، محاولة إقامة حكم للإسلام .

وإنما استطردنا هذا الاستطراد لندلل على انتفاء الحاجة

(١) الظلال ١ / ٩٠ .

للحكم على جميع المجتمع الحاضر بالجاهلية، وأن الداعية المسلم يمكنه الانطلاق بحرية وافرة انطلاقاً مزدوجاً في آن واحد لا حرج فيه.

فهو ينظر إلى الحكومة الداعية إلى نهج يخالف الشرع ، أو الحزب الداعي إلى مثل ذلك ، أو الفرد المتفلسف المعتقد لحل بعض الحرام ، أو المنكر لجزء من الايمان ، نظرة تكفير غاضبة، ويسلك مسلكاً غليظاً مع هذه الحكومات والأحزاب وهؤلاء الأفراد.

وهو في الوقت نفسه ينطلق منطلقا آخر تجاه أهل المعاصي من المسلمين ، ويخاطبهم أنواعاً متعددة من الخطاب .

فمنها: خطاب حب وتوعية بمعاني العمل الجماعي لمن أدى الفرائض والتزم بالأحكام وأمر بالمعروف وفق اجتهاده الفردي .

ومنها : خطاب حب وعتاب ، أو تقريع ، لمن التزم وسكت في موطن الأمر والنهي .

ومنها : خطاب شفقة ورحمة وحنان ، لمن ألهته الشهوة والغفلة عن الفرائض وسدر في العصيان .

ومنها : خطاب مقت وتذكير غاضب عنيف .

لصاحب الكبائر الظالم الماجن .

كل ذلك في آن واحد

معاً في المجتمع الواحد .

٢ .... كسوف لا غروب

ويرفض الداعية أن ينصاع للخداع .

ويستعلي أن تمر خطة الكيد .

فيقف يؤذن في الناس .

ولكن أكثر الناس نيام .

ويرى جلد أصحاب الباطل وأهل الريبة وتفانيهم لامرار خطتهم ، فإذا التفت رأى الأمين المسلم سادراً غافلا ، إلا الذين رحمهم ربهم ، وقليل ما هم .

ويعود ليفرغ حزنه ، في خطاب مع نفسه . . .

تبلّدَ في الناس حِسُّ الكفاح
ومالوا لكسبٍ وعيشٍ رتيبْ

يكاد يُزعزعُ مــــن همتي
سُدورُ الأمينِ ، وعزم المريبْ[1]

ويتهم نفسه أنه لم يكن بليغاً في ندائه ، ولكن سرعان ما يحسّ أنه قد حاز البلاغة من أقطارها ، فيعود يسلي نفسه ويجمل عزاءه . . .

ومن حَرِّ شدوي يُرى في الخريف
طروباً بصحبتي العندليــبْ
ولكن خُلقت بأرضٍ بهـــا
نفوس العبيد برِقٍّ تطيبْ [2]

لقد تبدلت موازين البلاغة ، وافتقد الجيل الأعمال الكبيرة التي يتمجد بها ، فصار — كما يقول الرافعي — :
(تخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها .) [3]

ورغم الفساد، فإن الداعية المسلم لن يتخلى عن محاولـــة انتشال العباد . وان كل وساوس اليأس من الاصلاح لن تلبث أن تتبدد أمام لحظة انتباه إيماني تريه مكانته المتوسطة لموكب الايمان السائر . أخذ عن السلف ، ولا بد أن يسوق له قدر الله خلفاً يستلم الامانة منه .

ذلك وعد الله . .

وإنه لموكب لن ينقطع أبداً ، مضى به القول على لسان

---

(١) ديوان مع الله للأميري / ١١٠ .
(٢) ديوان ضرب الكليم لاقبال / ١٤ .
(٣) وحي القلم ١ / ١٠٣ .

النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[1] .

بل ان وجود العصبة المسلمة في الأرض ، الكاملة الدينونة لله ، التي لم تتلوث بانحراف عن نهجه ، ولا توان عن قصده ، هي من سنن الله الكونية التي كمل بها الله سبحانه ميزان ما خلق . ولو افتقدت هذه العصبة لثقل الميزان في جانب ، وخف في جانب ، واضطرب الكون كله .

لذلك كان وجود الدعوة الربانية في هذه الأرض حتماً مقضياً . لن تزول لرغبة طاغية أو اضطهاد من زبانية .

أرأيت لو زالت الشمس من هذا الكون ، أو زالت الجاذبية ، كم يكون الاضطراب ؟

فكذلك وجود دعوة الحق ، فانها والشمس والقمر والجاذبية والماء والهواء من سنن الكون التي يتحتم وجودها ، والا فتقوم ساعة القيامة ، لكنها سنة لن يراها إلا صاحب قلب سليم ، كما لا يرى الجاذبية إلا صاحب درس عليم .

وهذا مصدر إصرار المسلم على المضي في الطريق ، يتعرض لقدر الخير هذا من أقدار الله ، يرجو أن يتجلى فيه ، فيكون من الفائزين . وأما من أعرض فان السنة ماضية لن تقف لإعراضه ، ويهدي الله لتجلية قدره وسنته قوما أخرين .

---

(١) صحيح مسلم ٦ / ٥٢ .

وقد أجمل الأستاذ المرشد حسن الهضيبي رحمه الله هذا المعنى ، فقال :

(أن أحداث الزمان يجب أن تخضع لكتاب الله وسنة رسوله ، مهما تراءى للناس أن الدنيا لا تحتمل هذا الإخضاع ، فالدين هو السنة التي وضعها الله للناس كما وضع السنن الكونية الأخرى للشمس والقمر والحيوان والنبات ، وكل ما في السماء وما في الأرض وما عليها)[1] .

انه يقول: كما أن للشمس ثباتا وجاذبية وللأرض مداراً ودورانا ، فان للبشر هذا الدين ، ان فقده اختل ميزانه . والناظر يرى أبعد من ذلك ، ويبصر ان للكون هندسة بديعة ، هذا الدين جزء منها ، فلا بد أن تمثله جماعة في كل وقت .

وأدرك عبدالوهاب عزام رحمه الله هذه السنة الكونية أيضاً ، سنة من لا يبتئس لصولة الباطل ، ولا يرده تساقط الشهداء ، أو غثاء المتخلفين ، فقال :

سنن الله في الخلائق تمضي
لا تني ساعة ، وليست تحول
وخلال الأحرار منها ، فليست
عن جهاد في الحق يوماً تزول[1]

وبإدراك عزام لهذه الحقيقة تبين فقهه ووعيه رحمه الله .

---

(١) مجلة (الدعوة) عدد ٥٢

(٢) ديوان المثاني لعزام / ١٣٣ .

ان إسلامنا نبأ عظيم ، وهو من مكملات الناموس الكوني الذي يختل بدونه . فلابد إذن أن يوجد في الواقع ، وتمحى الجاهلية ليتم الناموس من غير اضطراب .

« قل : هو نبأ عظيم ، انتم عنه معرضون »

(وانه لأمر اعظم بكثير من ظاهره القريب . انه أمر من أمر الله في هذا الوجود كله . وشأن من شؤون هذا الكون بكامله . انه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود . ليس منفصلا ولا بعيداً عن شأن السماوات والأرض ، وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد .

ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشاً في مكة ، والعرب في الجزيرة ، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض ، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ، ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع اعصارها وأقطارها ، ويكيف مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله ، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له .

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم ، سواء في ذلك من آمن به ومن صد عنه ، ومن جاهد معه ومن قاومه ، في جيله وفي الاجيال التي تلته ، ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم . .

ولقد أنشأ من القيم والتصورات ، وأرسى من القواعـــد والنظم في هذه الارض كلها ، وفي أجيال البشرية جميعها ، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال .

وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض ، ويوجه سير التاريخ ، ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة ، ويؤثر في ضمير هذه البشرية وفي واقعها ، ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله ، وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وأنه ماض كذلك إلى يـــوم القيامة ، ويؤدي دوره في توجيه اقدار الناس واقدار الحياة .

والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبأ كما وقف منه العرب أول الأمر ، لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ، ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن في بناء الوجود ، ولا يستعرضون آثاره في تاريخ البشرية وفي خط سيرها الطويل استعراضاً واقعياً ، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة من اعداء هذا النبأ ، الذين يهمهم دائماً أن يصغروا من شأنه في تكييف حياة البشر وفي تحديد خط التاريخ ، ومن ثم فان المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، وأنه دور ماض في هذه الأرض إلى آخر الزمان) (1)

ولكن ان لم يدركه ضحايا خطط الترويض من الظباء

(1) في ظلال القرآن ٢٣ / ١٠٧ .

الحفولة واسراب الحجل الوديع ، فان ليوثا من دعاة الإسلام قد أدركوه ، وها نحن نسمع نشيدهم المتعالي في سيرهم الميمون.

نحن وراث هـــداة للبشر
نحن عند الحق سر مدّخر
لا تزال الشمس تبدي نورنا
غيمنا فيه بروق وسنـــا
ذاتنـــا المرآة للحق ، اعلم
آية الحق : وجود المسلم[١]

وكذلك الفقه والوعي حين يكون . .
آية الحق وجود المسلم .

ووجود المسلم حتمية من حتميات التاريخ الماضي والحاضر وانها لحتمية ماضية إلى يوم القيامة .

(والحق هو قوام هذا الوجود ، فاذا حاد عنه : فسد وهلك « ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » ، ومن ثم فلابد للحق أن يظهر ، ولابد للباطل أن يزهق. ومهما تكن الظواهر غير هذا فان مصيرها إلى تكشف صريح « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »)[٢]

ولئن رأى الحاضر من البشرية اقصاء الإسلام عن الحياة فما ذاك إلا كما تكسف الشمس . والذي حصل من الاضطراب

---

(١) ديوان الاسرار والرموز لاقبال / ٦٧ .
(٢) مقدمة الظلال ١ / ٧ .

والظلم والفساد بإقصائه لدليل لأولي الأبصار يميزون به صواب ما نقول من كون الاسلام جزيئة لابد منها في نظام الكون البديع يختل بدونه .

وكما تأوي الطيور إلى اعشاشها حين تكسف الشمس ظهراً، وتعرف بفطرتها ان ثمة شذوذاً قد حصل ، وان الغروب لا يزال بعيداً ، ويكون لها الشعاع الضئيل الباقي مصدر أمل لعودة سريعة لنور الحياة ، وتظل تنتظر لا تنام ، فكذلك أولو القلوب الحية ، يدركون بفطرتهم أن تنحية الاسلام عن الحكم كانت حدثاً هائلا غريباً ، لكنه ليس الغروب ، وإنما هو حدث شاذ وما استمرار وجود عصبة اللحق باقية— مهما كانت ضئيلة — إلا مصدر أمل لعودة الاسلام إلى الحياة ، بل دلالة أكيدة على أنه سيعود إلى الحياة ، ويرجع من ابَق وتمرد من البشر إلى الرب الرحيم ، ويستفيق ضحايا تربية الترويض ، فإذا هم متمسكون بالنهج القويم .

(لقد كانت تنحية الاسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلا في تاريخها ، ونكبة قاصمة في حياتها . نكبة لم تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألم بها من نكبات . .

لقد كان الاسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض ، واسنت الحياة ، وتعفنت القيادات ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة ، و « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » .

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن ، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور ، فكان ذلك مولداً جديداً للانسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته، لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والقيم والنظم ، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً ، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور ، قبل أن ينشئه لها القرآن انشاء .

نعم ! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال ، والعظمة والارتفاع ، والبساطة واليسر ، والواقعية والايجابية ، والتوازن والتناسق ، بحيث لا يخطر للبشرية على بال ، لولا أن الله أراده لها ، وحققه في حياتها ، في ظلال القرآن ، ومنهج القرآن وشريعة القرآن .

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ، ونحي الاسلام عن القيادة ، نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى ، في صورة من صورها الكثيرة . صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الالوان)[1]

لكنها تنحية لن يسكت عنها دعاة الاسلام .

والطفل يجب أن نفتح له ذهنه ونريه حقائق الناموس الكوني

ان المسلم أعز من أن يعتقد أن لصيق الأرض بامكانه النطق بالصواب .

---

(١) مقدمة الظلال ١ / ٩ .

وإنما الصواب عنده ما نزل من السماء .

ولن يعدو هذا التنزيل ، ولا يتجاوزه ، بعد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .)

رفعت الأقلام وجفت الصحف .

كل شيء ما خلا الله باطل .

لا منهج إلا منهج الله ، وكل عبادة لسواه باطلة.

وهذا هو الذي عناه ربعي بن عامر حين قال لرستم :

(الله جاء بنا ، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله) (٣) .

فان (الاسلام هو منهج الحياة الوحيد ، الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر .) (٤) ، (فإذا أحنوا رؤوسهم فإنما يحنونها لله وحده ، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده ، وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده ، ومن ثم يتحررون حقاً من عبودية العبيد للعبيد ، حين يصبحون كلهم عبيداً لله بلا شريك) (٥)

---

(٢) صحيح البخاري ٥ / ٥٣ .

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢٠ .

(٤) (٥) الظلال ٤ / ٢٠٦ .

• سجدة الحرية

ورمزهم في كل ذلك هذه السجدة التي تعلي القلوب ، كما أن رمز الجاهليين تلك السجدة للمادة والجنس مميتة القلوب .

انها سجدة المسلم ، عنوان العلو ، وشارة الحرية والبراءة من كل طاغوت . . .

سجدة تخفض الجباه ولكن
عزّ فيها مسبح وتعالى
ظنها الجاهلون غُلاً على العبد
ولكن تحطم الأغلالا
خرّ فيها لساجد كل شيء
يرهب الكون قوله والفعالا
تثبت الوجه والجوارح في الأر
ض ، ولكن تقلقل الأجبالا
تهدم الشرك والوساوس في النف
س ، ولكن تشيد الأجيالا
في سكون ، وللقلوب مسير
سخر الأرض رهبة وجلالا
هي لله ، وحّدته ، فقرت
ومحت كل غاشم يتعالى
من وعاها : وعى السيادة في
الأرض جلالاً ، ورحمة ، وجمالا(١)

(١) لعبد الوهاب عزام في مجلة (المسلمون) السنة الأولى / ٩٦١ .

واسمها : سجدة الحرية ، بها يكسر المسلم قيد الهوى ، فإذا به (يصبح حراً . حراً يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من الله وحده ، شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله . فهو وكل إنسان آخر على سواء. كلهم يقفون في مستوى واحد ، ويتطلعون إلى سيد واحد ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله) [1]

وستظل البشرية معذبة مضطربة قلقة مريضة ما دامت لا تسجد هذه السجدة ولا تعتنق عقيدة الاسلام . وما استمرار عذابها النفسي وظلمها مع تقدمها المدني إلا دلالة على (ان العقل لا يصلح وحده أن يكون ضابطاً موزوناً مالم ينضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة . فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين ، ويفقد قدرته على المقاومة في وجه الضغوط المختلفة مالم يقم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون) [2] .

ولا سعادة لإنسان ، ولا نجاة له من الانجراف في الانهيار السريع الذي تورطت فيه الجاهلية من حوله إلا بأن يلجأ إلى هذه العقيدة يستهديها الطريق ، فتجيبه الجواب الصحيح على الأسئلة التليدة لكل إنسان ، ليكتشف أن ادعياء الفكر هم الذين أقاموا الحجاب بينه وبين فطرته .

ويومها فقط سيذوق معنى السعادة . .

---

(١) الظلال ٣ / ٢٠٦.

(٢) الظلال ٧ / ٥٧ .

ان السعــادة أن تعيـــش
لفكـــــرة الحــق التليـــد
لعقيـــــدة كــبرى تحــــل
قضيـــة الكــون العتيـــد
وتجيـــب عمـــا يســـأل الحير
ان في وعـــي رشيـــــد
من أين جئت ؟ وأين أذهب ؟
لمْ خلقت؟ وهل أعــود ؟
فتشيــع في النفس اليقـــين
وتطـــرد الشك العنيـــــد
وتعلّـــــم الفكـــر السوي
وتصنـــع الخلـــق الحميـــد
وتـــرد للنهـــج المسدد كل
ذي عقـــــــل شرود
تعطي حيـــــاتك قيمـــــة
رب الحياة بها يشيـــــــد
ليظل طـــرفك رانيــــــا
في الأفـــق للهدف البعيـــد
فتعيش في الدنيـــا لأخرى
لا تـــزول ولا تبيـــــد
وتمـــــد أرضك بالسمـــاء
وبالملائكــــــة الشهــود

هــــذي العقيـــــدة للسعيد
هي الأساس هـــي العمـــود
من عاش يحملهــــــا ويهتف
باسمها فهو السعيـــــد [2]

(١) ليوسف القرضاوي ، عن مجلة التربية الاسلامية ، السنة السادسة / ٢٧٨ .

٣ .... الأبرار الهالكون

تحليل الاحداث ، وتفسير التاريخ ، وتسمية المقدمات الخفية المؤدية إلى النتائج المنظورة ، كل ذلك إنما يتبع العقيدة التي يحملها الشخص المحلل المفسر ، والميزان الذي يزن به الأمور والظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ومن هنا اختلفت التفاسير والاجتهادات اختلافاً بيناً واضحاً وصار المؤمن ينظر أشياء من العلاقات بين النتائج وبين بعض الاحداث والاحوال نظرا واضحاً كأنها أمام عينيه ، ويلمسها بيده ويفركها ، فتزول قشورها التي تحجبها ، بينما لا يراها الكافر والجاهلي أو الفاسق الذي طبع على قلبه وتغلف باغلفة الشهوات والغفلات .

ان هذا الاختلاف مرده اختلاف الميزان فحسب .

ومن أهم الظواهر التاريخية التي يختلف في تفسيرها

وتحليلها ظاهرة الاضطراب الاجتماعي والتراجع والخراب المدني من بعد التقدم العلمي والعمراني والفني ، واستمــرار التقهقر التدريجي ، حتى ربما يختم بدمار كامل فجائي بقوة غير عادية .

فالكفار والفساق يدورون في حلقة مفرغة من التعليلات لهذه الظاهرة كلها أوهام ، أما المسلم فله قول فصل واحد في تفسير هذه الظاهرة مستمد من كثير من آيات القرآن واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، واوجزه الفاروق عمر بــن الخطاب رضي الله عنه بجملة واحدة جامعة حين سئل :

(أتوشك القرى أن تخرب وهي عامرة ؟

قال : إذا علا فجارها على ابرارها .) (١)

هذا هو السبب ، والداء الدوي .

إن علو الفجار على الأبرار سبب الاضطراب والخراب .

يعلو الفاجر ، فيولي أمثاله الأمور . ولا ينفك كل فاجر أن يكون أسير شهواته ، فيطبع قلبه ، ويعيش في غفلة عــن ارتياد ما فيه منافع قومه ، ثم يكون أسير مصالحه ، فيظلم ويشتط ويتعسف ، فتهدر بالتالي طاقات كثيرة ، وتتوارى الكفايات ، تطلب لنفسها الستر . ستر عرضها من الاعتداء ، وبدنها من العذاب ، ويعود لايتصدى لأمور الأمة الا كل جاهل أناني ، فيعم الاضطراب الاجتماعي ، ثم من بعده الخراب الاقتصادي والمدني العلمي .

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، لابن القيم / ٤٥ .

والله سبحانه شديد الغيرة على دينه ، وعلى اعراض العباد فيمهل الأمة حين يعلو الفاجر ، ويحب أن تبادر جماعة من عباده الأبرار لإصلاح الحال ومنازعة الفجار والتطويح بهم ، لترجع الأمور إلى نصابها ويعود العمران ، فان بادرت فرقة أمر ملائكته بنصرهم وفتح عليهم ينابيع فضله وبركته وتوفيقه ، والا فإنه يمهل أخرى ، من بعد أخرى ، حتى إذا تمادى الفاجر في فجوره وحتى إذا تمادى الأبرار في خوفهم وجبنهم وسكوتهم وقعودهم عن النهي عن المنكر : اشتد غضب الله ، فإذا غضب : عم وشمل غضبه الفجار بما فجروا وظلموا ، والأبرار بما سكتوا وتقاعسوا ورضوا الذلة .

وقد دلت الآيات والأحاديث على ذلك ، كما في تعقيبات شيخ الإسلام وامام الدعاة تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني على قوله تعالى :

« واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . »

قال رحمه الله :

(وقرأ طائفة من السلف :

لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، وكلا القراءتين حق فان الذي يتعدى حدود الله هو الظالم ، وتارك الانكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه ، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الانكار الواجب . وعلى هذا قوله :

«فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » ، فانجى الله

الناهين . وأما أولئك الكارهون للذنب ، الذين قالوا : « لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً . »فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين ، فانكروا بحسب قدرتهم .

وأما من ترك الانكار مطلقاً فانه ظالم يعذب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه . » وهذا الحديث موافق للآية .

والمقصود هنا أنه يصح النفي والاثبات باعتبارين ، كما أن قوله :

« لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أي لاتختص بالمعتدين بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره . ومن قرأ : « لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أدخل في ذلك من ترك الانكار مع قدرته عليه . وقد يراد أنهم يعذبون في الدنيا ، ويبعثون على نياتهم ، كالجيش الذين يغزون البيت ، فيخسف بهم كلهم ، ويحشر المكره على نيته .) [1]

ويلاحظ سيد رحمه الله هنا ، في معرض كلامه عن الآيات التي استشهد بها ابن تيمية ، ان الله سبحانه ذكر نتيجة الذين ينهون عن السوء ، وهي النجاة ، ونتيجة الذين ظلموا، وهي اصابة العذاب البئيس لهم ، أما الذين أنكروا بقلوبهم فقط ولم

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧ / ٣٨٢ .

ينهوا عن المنكر فان الله سبحانه لم يبين لنا نتيجتهم ولم يقص علينا خبرهم ، بل أهمل ذكرهم والاهمال نوع جزاء لمثل هذه الطائفة .

والحقيقة أن أكثر من تكلم في هذه الآيات ذكر أن هؤلاء الذين سكتوا نالهم العذاب بسكوتهم ، وشملهم العقاب ، وللقرطبي في تفسيره تصريح واضح بذلك .

ووصف بعض الأفاضل هذا العقاب بأنه « قانون العقاب الجماعي في سنة الله الكونية » وهو (قانون رهيب مخيف يدفع كل ذي علم وفقه ، وكل ذي حكم وسلطان ، إلى المسارعة والمبادرة ، فورا لتغيير المنكر ، دفعا للعذاب عن الكل) . (١)
(وهذا اللزوم أشد بالنسبة للحكام ، لأن بأيديهم السلطة والأمر والنهي ، وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فإذا اصلحوا الأحوال حسب أحكام الشرع وازالوا المنكر ، وأقاموا العدل ، وقضوا على أسباب المعصيات : اثابهم الله تعالى حسن ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ، ومكن لهم في الأرض. وان هم تقاعسوا عن ذلك انطبق عليهم حكم الله وجرت عليهم سنته ، وخسروا الدنيا والاخرة ، نعوذ بالله من الخذلان .) (٢)

وصاحب القلب الحي يحس بفطرته الايمانية ان الذي يعيشه

(١) (٢) مجلة التربية الاسلامية ، السنة السادسة / ٢٦ .

ذراري المسلمين اليوم من نكسات وهزائم وتراجعات انما هو مقدمة ونذير بين يدي ماهو أشد وانكى من عذاب ، والأمة الاسلامية اليوم لا يصدق عليها اسمها كل الصدق، فان الانحراف قد اصابها، (ويكفي الأمة انحرافاً انها تركت الجهاد في سبيل الله، واخلدت إلى الأرض ، ورضيت بالحياة الدنيا من الاخرة ، واقبلت على الشهوات تعب منها ، واسرفت في المعاصي ، حتى اذلها الله ، وخذلها الخذلان الأكبر ، وجعل قيادتها في أيدي المنحرفين العابثين .) [١]

ووعي هذه الحقيقة يلزم من علت همته أن يرفق بنفسه ، ويرحمها ، ويتجنب أن يمسه هذا القانون العقابي الرهيب .

وإنه لحصار شديد هو محاصر فيه الآن .

لايكفيه أن يفلت من خطط ترويض الاشبال وتحويلها إلى ظباء جفولة .

بل لا يكفيه مجرد الاستعلاء .

ليس له من طريق نجاة من هذا الحصار الذي يحاصره به هذا القانون الرهيب الا كوة يستطيع أن يفلت منها : كوة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومنازعة أهل المنكر ، وسلوك سبيل الدعوة ، والاهابة بالأمة أن تسارع إلى الصلاة وتحكيم شرع الله ، من قبل أن يجرفهم « قانون التماثل » الذي هو من سنة الله العامة في الكون ، فيهلكوا ، ويصيبهم العذاب ، من بعد أن ارتكبوا مثل العصيان الذي اهلك الله بسببه الغابرين ،

---

(١) معركة الاسلام للاستاذ الصواف / ٢٤ .

فان (النظير يأخذ حكم نظيره وإن ما يجري على الشيء يجري على مثيله ويستحيل أن يفترق المتساويان في الحكم . كما يستحيل أن يتساوى المختلفان في الحكم .

وهذا القانون يسري حكمه على الافراد والأمم على حد سواء . وفي أحوال الدنيا والاخرة . وعلى هذا دل القرآن الكريم . فمن ذلك .

● - ا - قوله تعالى مبينا ما جرى لليهود من بني النضير من نكال في الدنيا بسبب كفرهم ونقضهم العهد وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا . وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولي الأبصار » . فقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » صريح الدلالة على قانون التماثل . اذ ان من معناها : تأملوا يا أصحاب العقول السليمة بما وقع لهم . واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم اذا فعلتم مثل فعلهم . فان سنة الله واحدة تجري على الجميع . وان ما يجري على شيء يجري على نظيره . يوضحه أن الاعتبار لا يتأتى مطلقا ولا يكون للأمر به فائدة الا اذا كان المثيل يأخذ حكم مثيله .

● — ب — قال تعالى : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين » . فقول الله تعالى : « كذلك نجزي القوم المجرمين » دليل على أن ما جرى للمجرمين السالفين يجري على المجرمين اللاحقين ، فالنظير يأخذ حكم نظيره ، وان سنة الله واحدة تجري على جميع المجرمين . والله المستعان .

● — ج — قال تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » . دليل واضح على أن الدمار الذي حل بالكافرين السابقين سيحل بالكافرين اللاحقين ، لأنهم متساوون في وصف الكفر والعناد والتكذيب فيتساويان في العاقبة .

● — د — قال تعالى : « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به » . فالجزاء يلحق فاعل السوء أيا كان ، دون محاباة ولا تمييز ولا تخلف .

* — هـ — قول الله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » . « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون » . « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض . أم نجعل المتقين كالفجار » . فالقرآن شاهد على صحة قانون التماثل بشقيه أي التساوي في الحكم والعاقبة بين المتماثلين ، والتفريق بين المختلفين .

فاذا فهم المسلمون مدلول هذه الآيات القرآنية التي ذكرناها للتدليل على صحة قانون التماثل وأمثالها من الآيات الأخرى ، والتي فيها ذم للأقوام السابقة ، كاليهود وغيرهم ، لتلبسهم بالأفعال القبيحة والأوصاف الذميمة : عرفوا ان الذم كان لهذه المعاني وان الذم يلحقهم لا محالة اذا فعلوا فعلهم ، وان العاقبة السيئة تصيبهم كما أصابتهم فلا يغرهم مجرد انتسابهم للاسلام من دون عمل وانصباغ بمقتضاه)[1] .

وقد جعل اقبال رحمه الله هذا القانون من قواعد الهدى الاسلامي ، وبين في المحاضرة الخامسة من المحاضرات التي ألقاها بمدينة مدراس الهندية :

(ان الأمم والجماعات مأخوذة بأعمالها في هذه الحياة . ولهذا يكثر القرآن من قصص الماضين ويأمر بالنظر في تجاريب الأمم ، غابرها وحاضرها)[2] .

ان هذه القوانين الرهيبة المفزعة لا يفهمها أكثر الناس . وليس لهم استعداد للتصديق بها . انما يفهمها الدعاة الى الله فحسب ، ولا بد لهم من مسارعة الى القيام بواجب النهي عن المنكر ، ليأمنوا من فزع يومئذ .

أيها الأبرار الصالحون .

---

(١) مجلة التربية ٦ / ٢٦ .
(٢) كتاب (محمد اقبال) لعبد الوهاب عزام / ١٢٠ .

أيها الزهاد العابدون .

أمامكم خطر القانون الرباني الرهيب ان تخارستم .

لا يغرنكم زهدكم ولا صلاتكم .

انطقوا بالحق ، وانهوا عن المنكر ، والا ... فهو الهلاك .

٤ .... وُجوبُ الدّعوَة إلى الله

انها رهبة تفزع المسلم حقا ، تقذفها تلك التهديدات التي خاطب الله تعالى بها من يصمت ويتخارس ويدع النهي عن المنكر .

ويظل الأخرس قلقا أبدا ، محروما من الطمأنينة والسكينة الايمانية ، فانها حكر خالص لأصحاب اللسان الناطق بالحق ، الذين يبشرون الناس بالجنة ، وبسماحة الاسلام وعدله ، وينذرونهم عذاب جهنم وقانون التماثل في العقاب الرباني ، فيرثون النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، كما وصفه الله تعالى ، حين قال انه أرسله بشيرا ونذيرا . أو بالاصطلاح الآخر : الذين يدعون الى الله . أو باصطلاح بعض الفقهاء : الذين يحتسبون ، أي يقومون بمهمة الحسبة ، أي احتساب الأجر عند الله في أداء النصيحة والأمر والنهي .

وقد تعرض ابن تيمية رحمه الله لتعريف الدعوة ، فقال :

(الدعوة الى الله : هي الدعوة الى الايمان به ، وبما جاءت به رسله ، بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا)[1] .

● الدعوة والدعاة في اللغة والاشتقاق

وكلمة (الدعوة) هذه هي مصطلح اسلامي ، وهناك (علاقة وثيقة بين مدلول اللفظ في الأصل اللغوي ، وبين استعمال اللفظ كمصطلح اسلامي صرف ، ليس لبقية المعتقدات ناقة فيه ولا جمل .

وأول ما ننظر الى كون اللفظة فعلا ، وهو « د ع و » على زنة « فعَل » ، وفي العربية ، اذا سبق حرف العلة « الواو » حرف مفتوح قلب الواو الفا ، فتصبح « دعا » .

ونجد أن هذا اللفظ لا يحمل الا معنى واحدا ، وهو : أن تميل الشيء اليك بصوت وكلام يكون منك . انظر معجم مقاييس اللغة ٢ / ٢٧٩ .

والامالة هنا مقتصرة على شيئين : الصوت ، والكلام ، اللذين يخرجان من محدثهما ، وحين ذاك لا يكون لهذا اللفظ مدلول آخر ، فأنت حين تقرأ قوله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين » . تفهم أن الله تعالى فضل من دعا اليه بأنه أحسن « قولا » ممن لم يدع اليه .

ومشتقات هذا الفعل لم تخرج في مدلولاتها عن هذا المعنى

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥ / ١٥٧ .

أبدا ، فالمصدر منه مثلا هو : دعاء ، والأصل : دعاو ، لأنه – كما هو معروف – من دعوت ، الا أن الواو لما جاءت بعد الألف قلبت همزة . وقد يأخذ المصدر أشكالا أخرى من الأبنية . يقول الجوهري : « يقال : كنا في دعوة فلان ومدعاة ، وهو في الأصل مصدر ، يريدون : الدعوة الى ... ، ويقول صاحب المحيط : « دعا دعاء ودعوى » ، أي الامالة والترغيب .

فمن مجموع ما تقدم نفهم أن الصلة وثيقة بين مدلول الفعل دعا في اللغة ، وبين مدلوله فيما اصطلح عليه القرآن الكريم ، فقوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك » يدل على الامالة والترغيب .

والذي يقوم بأمر الدعوة ويحمل عبأها ليبلغها الى الناس هو الذي يطلق عليه الاسلام : « الداعي » أو « الداعية » ، والداعي اسم فاعل من الفعل دعا يدعو ، أما الداعية فهو بناء اسم الفاعل أيضا مع تاء تلحق في آخره لتدل على المبالغة والتكثير واذا أردنا الجمع قلنا « دعاة » والجمع السالم « داعون » و«داعيات»[1]

الدعوة وظيفة الرسل وأتباعهم

(والرسول صلى الله عليه وسلم قام بهذه الدعوة ، فانه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه .

(١) من مقال للشاعر الأستاذ رشيد الأعظمي في مجلة التربية الاسلامية ٥ / ٤٧١ مع بعض حذف .

أمر بكل معروف . ونهى عن كل منكر) [1] .

(والواقع أن الدعوة الى الله هي وظيفة رسل الله جميعا . ومن أجلها بعثهم الله تعالى الى الناس ، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا اليهم الى الايمان بالله ؛ وافراده بالعبادة . على النحو الذي شرعه لهم . قال تعالى عن نوح عليه السلام : « لقد أرسلنا نوحا الى قومه ، فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره » .

وهكذا جميع رسل الله دعوا الى الله : الى عبادته وحده والتبرؤ من عبادة سواه . قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ، فرسل الله هم الدعاة الى الله ، وقد اختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها الى الناس) [2] .

(وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب ، من باطن وظاهر ، فمن الدعوة الى الله : الأمر به . وكل ما أبغضه الله ورسوله ، من باطن وظاهر ، فمن الدعوة الى الله : النهي عنه . لا تتم الدعوة الى الله الا بالدعوة الى أن يفعل ما أحبه الله ، ويترك ما أبغضه الله ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة) [3] .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥ / ١٦١ .
(٢) أصول الدعوة / ٢٦٨ .
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥ / ١٦٤ .

• ما ورد في القرآن الكريم
من آيات الدعوة والأمر والنهي

ووردت في القرآن آيات كثيرة توجب الدعوة الى الله . منها ما تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، فتدخل أمته في الخطاب تبعا له ، ومنها ما خاطبت الأمة مباشرة .

فمن الآيات التي تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم » . وقوله تعالى : « وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين » .

(وهذه الآيات يدخل فيها المسلمون جميعا ، لأن الأصل في خطاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم دخول أمته فيه الا ما استثنى ، وليس من هذا المستثنى أمر الله تبارك وتعالى له بالدعوة اليه ، ومعنى ذلك أن الله تعالى أكرم هذه الأمة الاسلامية وشرفها أن أشركها مع رسوله الكريم في وظيفة الدعوة اليه)[1] .

وأما الآيات التي تخاطب الأمة وتوجب عليها أن تأمر وتنهى فكثيرة ، لا تدع عذرا لمتقاعد متخوف ، كقوله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » .

قال القرطبي : (فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على أن أخص أوصاف

---

(١) أصول الدعوة / ٢٦٩ .

المؤمنين : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورأسها : الدعاء الى الاسلام)[1] .

وقد سرد الغزالي رحمه الله هذه الآيات ، وعقب عليها تعقيبات قيمة . قال :

(قال تعالى : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين » .

فلمْ يشهد لهم بالصلاح بمجرد الايمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف اليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[2] .

(وقال تعالى : « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

و هذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اذ بين انهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس :

وقال تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

فبين انهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء ، ويدل ذلك على الوجوب أيضا .

---

(١) تفسير القرطبي ٤ / ٤٧ نقلا عن أصول الدعوة .

(٢)احياء علوم الدين ٢ /٣٠٧

وقال تعالى : « الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين .

وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . وهو أمر جزم ، ومعنى التعاون : الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الامكان .

وقال تعالى : « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

وقال تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض » .

فبين انه اهلك جميعهم الا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين .

وقال تعالى : « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

وقال تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » .

والاصلاح نهي عن البغي واعادة الى الطاعة ، فان لم يفعل

فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال :

« فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » .

وذلك هو النهي عن المنكر)[1] .

واذن ، فان الحريص على ايمانه ، الطالب للفردوس وعليين ، يحرص أشد الحرص على أن ينطق بالحق ، معطيا راحته ووقته وماله . بل روحه ودمه ، ثمنا لما يطلب ، فان الدعوة الى الله واجبة ، لا يعذر منها أحد ، الا من كان مستضعفا من عوام الناس ، البسطاء السذج الذين لا يحسنون النطق وتدبير الأمور .

وكما أوجب الله على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يقوم فينذر ويدعو الى الله ، فكذلك (الدعوة الى الله واجبة على من اتبعه ، وهم أمته يدعون الى الله ، كما دعا الى الله) .

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به ، ونهيهم عما ينهي عنه ، واخبارهم بما أخبر به ، اذ الدعوة تتضمن الأمر ، وذلك يتناول الأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر)[2] .

(وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة ، وهو الذي يسميه العلماء : فرض كفاية ، اذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين ، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ، ولكن اذا قامت به طائفة سقط عن الباقين)[3] .

(فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة الى الله ، ولهذا كان

---

(١) احياء علوم الدين ٢ / ٣٠٧ .

(٢) (٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥ / ١٦٥ .

اجماعهم حجة قاطعة . فأمته لا تجتمع على ضلالة . واذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه الى الله والى رسوله .

وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه اذا لم يقم به غيره . فما قام به غيره : سقط عنه . وما عجز : لم يطالب به .

وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به . ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على ذاك . وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى . فقد يدعو هذا الى اعتقاد الواجب . وهذا الى عمل ظاهر واجب . وهذا الى عمل باطن واجب . فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة . وفي الوقوع أخرى .

وقد تبين بهذا أن الدعوة الى الله تجب على كل مسلم . لكنها فرض على الكفاية . وانما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه اذا لم يقم به غيره ، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبليغ ما جاء به الرسول . والجهاد في سبيل الله ، وتعليم الايمان والقرآن .

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، فان الداعي طالب مستدع مقتض لما دعا اليه ، وذلك هو الأمر به ، اذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به . واستدعاء له ودعاء اليه ، فالدعاء الى الله : الدعاء الى سبيله ، فهو أمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر) (١) .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥ / ١٦٦ .

• معنى الكفاية
ورد أوهـــام القاعدين الصامتين

ويتوهم الكثيرون انهم قد أذن لهم بالقعود حين قرر الفقهاء أن الدعوة فرض على الكفاية . ويختارون أنفسهم في الطائفة المتخارسة . اغترارا بأن الدعوة اذا قام بها البعض سقطت عن الباقين . وليس الأمر كما فهموا ، كما هو واضح في النص السابق . فان لفظ القيام بها يعني حصول الشيء المأمور به في عالم الواقع وتطبيقه واتعاظ الطائفة المأمورة فعلا ، فاذا بقيت الطائفة المأمورة سادرة في غفلتها ، متبعة لشهوتها ، والغة في عصيانها : بقي جميع المسلمين تحت هذا التكليف ، وعليهم أن يعينوا الدعاة الى الله الذين يأمرون بالمعروف ، ويزيدوا قوتهم ، ويكثروا سوادهم ، الى الدرجة التي يكتسبون فيها الهيبة والتأثير الكافي لامتناع الطائفة العاصية من أفراد الأمة عن عصيانها ومخالفتها للشريعة ، فاذا امتنعت فعلا لزم وجود عدد من الآمرين الدعاة يديمون حالة الامتناع هذه ، ووسع البعض الآخر أن يسكتوا . أما قبل ذلك فلا . ومن يستطلع حالة المسلمين اليوم يجد أن الجهود المبذولة في الدعوة الى الله لازالت أقل من المقدار المطلوب لامتناع من يرتكب المعاصي منهم ، ورأس المعاصي : الحكم بغير ما أنزل الله ، وبآراء العقول والأهواء والأفكار المستوردة ، ومن ثم فانه لا يسع المسلم اليوم أن يقعد عن الدعوة الى الله ، ونصرة الدعاة ، والاشتراك معهم في جهودهم لاقتلاع السوء

والمعاصي ، وأهل السوء والمعاصي . واحلال الخير وأهل الخير والتوحيد محل ذلك .

(فالدعوة الى الخير – وأعلاها : الدعوة الى الله – واجبة على كل مسلم بقدر استطاعته . لأن هذه الدعوة من صفات المؤمنين ، ولأن الحديث الشريف أمر كل مسلم ومسلمة بازالة المنكر حسب استطاعته . فاذا حصل المقصود بفرد أو أفراد : لم يطالب الآخرون باعادة المنكر لازالته . ولا يؤاخذون لأنهم لم يزيلوه . والشأن في المسلم المبادرة الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون انتظار الى غيره ، فقد لا يقوم به الغير فيقع في الاثم . والمسلم يدعو الى الله باعتباره مسلما مؤمنا بالله ورسوله . كما قال تعالى « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة . أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . فلا بد للمسلم أن يدعو الى الله ، ولكن لو قدر انه لم يدع شخصا معينا الى الله أو لم يدع في وقت ، وقام بالدعوة مسلم آخر ، فان الداعي يؤجر دون الأول . ولكن لو ترك المسلم الدعوة الى الله تركا دائما مستمرا متعمدا فانه لا ينضوي تحت مفهوم قوله تعالى « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » ، لأن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين يدعون الى الله .

هذا ومن معاني الفرض الكفائي أنه متوجه الى المسلمين جميعا بأن يعملوا لتحقيق هذا الفرض ، وعلى القادر فعلا أن يقوم بهذا الفرض مباشرة ، فيكون معنى الآية « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » :

أن يقوم المسلمون باعداد هذه « الأمة » أي الجماعة المتصدية للدعوة الى الله . وأن يعاونوهم بكل الوسائل ليتحقق المقصود من قيامهم وهو اقامة دين الله ونشر دعوته . فان لم يفعل المسلمون ذلك أثم الجميع المتأهل للدعوة وغيره .

ويقال أيضا : ان الدعوة الى الله حتى لو قلنا انها تجب على البعض دون البعض الآخر باعتبار أنها من الفروض الكفائية . فان الشرط للخروج من عهدة الفرض الكفائي حصول الكفاية بمن يقوم به . ولما كانت الكفاية غير حاصلة ، فيجب أن يقوم بهذا الواجب كل مسلم حسب قدرته)[1] .

● معنى اختصاص الدعوة بالعلماء

وتعرض لمن لا فقه له ها هنا شبهات وأوهام يظن معها عدم وجوب الدعوة الى الله .

وأمر هذه الشبهات كأمر أي بدعة ، انما تستند على نص مجمل يمكن صرفه وتأويله الى بعض المعاني الخاصة التي يمكن أن يتحملها النص . ولكن القواعد العامة للشريعة تأبى هذا المعنى وتدل على خلافه . أو تنقضه نصوص أخرى توجب تفسيرا آخر للنص الأول ، وتكشف المعنى المرجوح فيه .

والغالب في أمر البدع أن النصوص التي يستند لها أصحابها في ترويجها هي نصوص واضحة لذي الفهم السليم . ولكن

---

(١) أصول الدعوة / ٢٧٥ .

الهوى يحمل على التمحل والتكلف في صرفها عن معناها الظاهر ، والهوى مسلك نفسي يظهر في صور كثيرة ، وتسببه دوافع كثيرة مختلفة ، وهو في هذا الموطن ، موطن اعتقاد أو ادعاء عدم وجوب الدعوة على جميع المسلمين ، انما يسببه في الغالب الخوف والجبن والحرص على الراحة والأسى على تفويت بعض المنافع الدنيوية التي قد تفوت الداعية بسبب أمره ونهيه .

فمن هذه الشبهات : الفهم الخاطىء لقول العلماء إن التكليف بالدعوة مختص بالعلماء ، اذ ان (العلم) شرط ذكره الفقهاء من جملة شروط الآمر الناهي ، كقول الرازي :

(ان هذا التكليف مختص بالعلماء ، لأن الدعوة الى الخير بالعلم بالخير وبالمعروف والمنكر ، فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء لا على الجهال ، والعلماء بعض الأمة) [1] .

ومثل هذا المعنى عند القرطبي والجصاص [2] . فاشتبه الأمر على من اشتبه عليه من ها هنا .

والحقيقة أن هناك شيئا من الالتباس في فهم هذه المسألة بسبب كلمة « العلماء » التي فسر بها هؤلاء كلمة « ولتكن منكم أمة » الواردة في الآية باعتبار أن الدعوة الى الخير مشروطة بالعلم .

و (لا شك أن الدعوة الى الخير ، وأعلاها : الدعوة الى

---

(١) (٢) تفسير الرازي ٧ / ١٧٧ ، وتفسير القرطبي ٤ / ١٦٥ ، واحكام القرآن للجصاص ٢ / ٢٩ ، نقلا عن أصول الدعوة / ٢٧٤ .

الله ، مشروط لها العلم ، ولكن العلم ليس شيئا واحدا لا يتجزأ ولا يتبعض ، وانما هو بطبيعته يتجزأ ويتبعض ، فمن علم مسألة وجهل أخرى فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية ، ومعنى ذلك انه يعد من جملة العلماء بالمسألة الأولى ، وبالتالي يتوفر فيه شرط وجوب الدعوة الى ما علم دون ما جهل ، ولا خلاف بين الفقهاء ان من جهل شيئا أو جهل حكمه انه لا يدعو اليه ، لأن العلم بصحة ما يدعو اليه الداعي شرط لصحة الدعوة . وعلى هذا فكل مسلم يدعو الى الله بالقدر الذي يعلمه كما سنبينه فيما بعد ، ويكون هذا المعنى هو المقصود من قولهم ان الدعوة تجب على العلماء لا على غيرهم ، أي على من يعلم المسألة وحكمها التي يدعو اليها ، سواء كان من عامة المسلمين أو ممن نال حظا كبيرا من العلم . وبهذا يظهر فساد قول من قال ان المقصود بالعلماء هم الذين نالوا حظا كبيرا من العلم دون سواهم ، وقد يسمونهم برجال الدين ، لأن هذه التسمية تصدق على كل مسلم ، فهو من رجال الاسلام ، وليست مقصورة على فئة منهم) [1] .

● لا يتمّ الاهتداء إلاّ بالأمر والنهـــي

ومن الشبهات أيضا ، الفهم الخاطىء للآية الكريمة : « لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » ، فيحجم الذي لا فقه له ممن يسمعها عن الأمر والنهي ، ويتودد الى الناس .

---

(١) أصول الدعوة / ٢٧٤ .

وهذا الاحجام اعتبره ابن القيم من أعظم مكايد الشيطان ، فيلقي الشيطان في روع البعض (ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد الى الناس وحسن الخلق معهم والعمل بقوله تعالى : عليكم **أنفسكم**) [١] .

ويحسن في هذا الموضع أن ننقل مقالة مهمة للامام ابن تيمية في رد هذه الشبهة ، أجاد فيها وأحسن ، وأغنى وكفى .

قال رحمه الله :

(قوله تعالى علوا كبيرا : « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا نهيا ولا إذنا ، كما في الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه انه خطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس : انكم تقرؤ ن هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ، واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشلك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعا في تأويلها : «اذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، واعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة نفسك » . وهذا يفسره حديث أبي سعيد في مسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

---

(٢) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١ / ١٣٠ .

فاذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم اصغاء الى البر ، بل يؤذون الناهي ، لغلبة الشح والهوى والعجب : سقط التغيير باللسان في هذه الحال ، وبقي بالقلب .

و « الشح » هو شدة الحرص التي توجب البخل والظلم ، وهو منع الخير وكراهته . و « الهوى المتبع » في ارادة الشر ومحبته ، و « الاعجاب بالرأي » في العقل والعلم . فذكر فساد القوى الثلاث التي هي العلم والحب والبغض ، كما في الحديث الآخر : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه . » وبازائها الثلاث المنجيات : « خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى ، وكلمة الحق في الغضب والرضى » ، وهي التي سألها في الحديث الآخر : « اللهم اني أسألك خشيتك في السر والعلانية ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى » .

فخشية الله بازاء اتباع الهوى ، فان الخشية تمنع ذلك ، كما قال « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » ، والقصد في الفقر والغنى بازاء الشح المطاع ، وكلمة الحق في الغضب والرضى بازاء اعجاب المرء بنفسه . وما ذكره الصديق ظاهر ، فان الله قال : « عليكم أنفسكم » ، أي : الزموها واقبلوا عليها ، ومن مصالح النفس فعل ما أمرت به من الأمر والنهي . وقال : « لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » . وانما يتم الاهتداء اذا أطيع الله ، وأدى الواجب من الأمر والنهي وغيرهما ، ولكن في الآية فوائد عظيمة .

أحدها : أن لا يخاف المؤمن الكفار والمنافقين فانهم لن يضروه اذا كان مهتديا .

الثاني : أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم ، فان معاصيهم لا تضره اذا اهتدى ، والحزن على ما لا يضر عبث ، وهذان المعنيان مذكوران في قوله : « واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون » .

الثالث : أن لا يركن اليهم ، ولا يمد عينه الى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات ، كقوله : « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم » فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية ، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية ، فان الانسان قد يتألم عليهم ومنهم : اما راغبا واما راهبا .

الرابع : أن لا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم ، أو نهيهم أو هجرهم ، أو عقوبتهم ، بل يقال لمن اعتدى عليهم : عليك نفسك لا يضرك من ضل اذا اهتديت ، كما قال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، وقال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » ، وقال : « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » ، فان كثيرا من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله اما بجهل واما بظلم ، وهذا باب يجب التثبت فيه ، وسواء في ذلك الانكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين .

الخامس : أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع ، من العلم والرفق ، والصبر ، وحسن القصد ، وسلوك السبيل القصد ، فان ذلك داخل في قوله : « عليكم أنفسكم » ، وفي قوله : « اذا اهتديتم » .

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيها المعنى الآخر ، وهو : اقبال المرء على مصلحة نفسه علما وعملا ، واعراضه عما لا يعنيه ، كما قال صاحب الشريعة : « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء اليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه ، لا سيما ان كان التكلم لحسد أو رئاسة .

وكذلك العمل ، فصاحبه اما معتد ظالم ، واما سفيه عابث ، أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، ويكون من باب الظلم والعدوان .

فتأمل الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء ، وأنت اذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة ، علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها : وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل ، كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات والقرآن ، ، محنة أحمد وغيره ، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة ، وكمابغت الناصبة على علي وأهل بيته ، وكما قد تبغي المشبهة علىالمنزهة ، وكما قد يبغي بعض المستنة اما على بعضهم واماعلى نوع من المبتدعة بزيادة على مـــا أمر الله به ، وهو الاسراف المذكور في

قولهم : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا » .

وبازاء هذا العدوان : تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق ، أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الأمور كلها ، فما أحسن ما قال بعض السلف : ما أمر الله بأمر الا اعترض الشيطان فيه بأمرين ، لا يبالي بأيهما ظفر ، غلو أو تقصير .

فالمعين على الاثم والعدوان بازائه تارك الاعانة على البر والتقوى ، وفاعل المأمور به وزيادة منهي عنه بازائه تارك المنهي عنه وبعض المأمور به ، والله يهدينا الصراط المستقيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله) .

انتهى كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله [1] ، وهو كلام رفيع جليل ، ولذلك حرصنا على ايراده بطوله ، وكنا قد اختططنا لأنفسنا في مقدمة هذه المواعظ التواضع أمام أئمة الفقهاء والدعاة ، والحرص على كلام القدماء وتقديمه على كلام المعاصرين وعلى ما نستطيع انشاءه .

ويجب الانتباه الى أن ما أجازه خلال كلامه من السكوت عند قوة أهل الفجور وأذاهم للناهي انما يقتصر على العامة من المستضعفين ، وأما الدعاة والقادة والعلماء فيأخذون بالعزيمة ، ويصدعون بالحق وان لحقهم الأذى والعذاب والموت ، كما بينه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤ / ٤٧٩ .

ابن تيمية في كلام آخر له سنذكره في حلقات قادمة ، وكما بينه غيره ، وكما كانت سيرة الامام أحمد بن حنبل رحمه الله في أيام محنة خلق القرآن . ولاحظ بصورة خاصة أهمية قول ابن تيمية « وانما يتم الاهتداء اذا اطيع الله » ...

(وهكذا صحح الخليفة الأول – رضوان الله عليه – ما ترامى الى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة ، ونحن اليوم أحوج الى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق ، فما أيسر ما يلجأ الضعاف الى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه ، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه !

وكلا والله ، ان هذا الدين لا يقوم الا بجهد وجهاد ، ولا يصلح الا بعمل وكفاح . ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس اليه ، ولاخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ولتقرير الوهية الله في الأرض ، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان ، ولاقامة شريعة الله في حياة الناس ، واقامة الناس عليها .

لا بد من جهد ، بالحسنى حين يكون الضالون أفرادا ضالين ، يحتاجون الى الارشاد والانارة ، وبكل وسيلة مشروعة وممكنة ، حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى ، وتعطل دين الله ان يوجد ، وتعوق شريعة الله أن تقوم .

وبعد ذلك ــ لا قبله ــ تسقط التبعة عن الذين آمنوا)[1] .

وإذن فان مفهوم هؤلاء الذين يعذرون أنفسهم غير وارد ، وانما عنت الآية أن (عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها ، وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها ، ولا عليكم أن يضل غيركم اذا أنتم اهتديتم ، فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم ، وأنتم أمة متضامنة فيما بينها ، بعضكم أولياء بعض ، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم .

ان هذه الآية الواحدة تقرر مبادىء أساسية في طبيعة الأمة المسلمة ، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى .

ان الأمة المسلمة هي حزب الله ، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان ، ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن ، لأنه لا اشتراك في عقيدة ، ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة ، ولا اشتراك في تبعة أو جزاء .

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها ، وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدي بهدى الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها .. ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئا أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى .

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم الى الهدى . والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها . فاذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو

---

(١) (٢) الظلال ٧ / ٦١ / ٥٩ .

الناس كافة ، وأن تحاول هدايتهم ، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ، ولتحول بينهم وبين انحلال بالجاهلية التي منها أخرجوا ..

ان كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل اذا اهتدت ، لا يعني انها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولا ، ثم في الأرض جميعا . وأول المعروف الاسلام لله وتحكيم شريعته ، وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت ، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه .. والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا ، وعلى البشرية كلها أخيرا .

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديما ــ وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثا ــ أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ اذا اهتدى هو بذاته ــ ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة اقامة شريعة الله في الأرض ــ اذا هي اهتدت بذاتها ــ وضل الناس من حولها.

ان هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر ، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان ــ وأطغى الطغيان الاعتداء على الوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته ، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم) (١) .

(١) الظلال ج٧/ط١٩٦١/ص٥٩-٦٠

٥ العابدون اللاعبون

ما نقلناه سابقا عن ابن تيمية ، وابن القيم ، والغزالي ، وبعض المعاصرين ، في وجوب الدعوة الى الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، معتمدين على طائفة من الآيات والأحاديث ، انما هي نقول تحمل معها من الوضوح ما كان كافيا لرد أوهام المتخارسين الذين ظنوا ان بعض العبارات الفقهية المجملة تعفيهم من هذا الوجوب .

ومع كثرة صيحات الدعاة في هذه السنين واهابتهم بالناس ، وبالمصلين خصوصا ، أن يعملوا ، ويعاونوا الدعاة الآمرين النهاة ، فان الأكثرين لا زال الحزن على واقع المسلمين يستهلكهم يوما من بعد يوم ، ولم يعرفوا طريق العمل ، أو عرفوه ومنعهم الخوف من تحمل التضحيات عن العمل ، أو منعهم الحرص على المال والمصالح الدنيوية ، فانعزلوا في

مساجدهم وبيوتهم ، يبكون الاسلام ، ويتركون الأجيال وجماهير الشباب الساذج لمن يربيها من دعاة الالحاد والعلمانية والشيوعية والوجودية ، ولمن يجرها الى الفساد والحياة الشهوانية والزنا والخمر والاسراف في اللهو .

ان هؤلاء المصلين ، وأهل الغيرة والحزن على مصير المسلمين ، يقرأون كتب الفقه التي ننقل عنها ، وكتب الزهد والرقائق ، ولكن كأن خور عزائمهم لا يوقع أبصارهم على ما فيها من صيحات المخلصين على مر الأجيال والقرون ، من لدن عصر الصحابة الى العصور المتأخرة ، وحثهم على العمل للاسلام ، والتبشير به ، ودعوة الخلق ، وتنبيه الجموع الغافلة ، وترك العزلة والتواري ، والتصدي للجهاد والبذل .

انه حزن قاتل ، وتعبد مرجوح ، وعزلة مضيعة ، وبدعة هادمة ، وان تجلل كل ذلك بالاخلاص والنية الصالحة .

● من يقاتل العدو اذا اعتزلتم ؟

وأول فوج ظهر من هؤلاء الواهمين كان في عصر صدر الاسلام ، والصحابة ، رضي الله عنهم لا زالوا أحياء ، فتصدى لهم الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، وعرف ما في العزلةمن مضادة للاسلام المتحرك ، اسلام الأمر والنهي والجهاد والدعوة الذي رباه عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأوضح لهم بدعتهم ، ونهرهم واجتث أوهامهم من عروقها ، وعاد بهم الى الصواب ..

يروي لنا التابعي الكوفي، الفقيه النبيل عامر الشعبي، ان رجالا (خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريبا يتعبدون، فبلغ ذلك عبدالله ابن مسعود، فأتاهم، ففرحوا بمجيئه اليهم، فقال لهم:

ما حملكم على ما صنعتم؟

قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد.

فقال عبدالله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا).

روى ذلك شيخ المحدثين عبدالله بن المبارك رحمه الله [1].

وأظن، والله أعلم، أن هؤلاء أخذوا هذه البدعة عن النصارى، اذ كانت أراضي الفرات حول الكوفة كثيرة الديارات النصرانية، وكانت قبيلة طي تسكن حول الكوفة آنذاك وقد فشت فيها النصرانية قبل الاسلام، كما يدل على ذلك كون رئيسها عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه نصرانيا قبل اسلامه.

ومن هاهنا، من عبدالله بن مسعود، اقتبس الوعي الصحيح الداعون الى الاسلام على تعاقب الأجيال.

انها كلمة الحق، وعنوان الوعي، وشارة التربية النبوية الكريمة.

سيماهم في كلامهم، مثلما هي في وجوههم.

من يقاتـــل العدو اذن لـــو اعتزل العابدون؟

---

(١) كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك / ٣٩٠.

من يرد كيد الصهيونية والماسونية ، والدعاية الشيوعية الالحادية ، اذا بقي المصلون في مساجدهم لا يضمون جهودهم الى جهود دعاة الاسلام .

فلما مات ابن مسعود وأصحابه ، وذهب جيل المجاهدين من التابعين الذين رباهم الصحابة ، عاد البعض الى التخلي عن الجهاد ، والى العزلة ، مرة ثانية ، في النصف الثاني من القرن الثاني .

● ابن المبارك يرث ابن مسعود

ولكن الله سبحانه يهدي عبدالله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) ليجدد حيوية الأمة .

كان رحمه الله محدثا ثقة ، وحديثه في الصحيحين والسنن والمسانيد يشهد بذلك وكان فوق ذلك من الفقهاء والنبلاء ، وله مال كثير ينفقه على أهل العلم في جميع عواصم الاسلام ، وله شعر ايماني جيد .

ولم يكتف بذلك بل كان داعية مجاهدا ، يغزو كل سنة بلاد الروم ، ويتخذ له من طرسوس مقرا ، وهي جنوب تركيا الآن ، حتى صار بهذه الصفات المجتمعة رأس المحدثين في جيله ذاك .

تهز ابن المبارك هذه الكلمة التي نقلها في كتابه عن ابن مسعود رضي الله عنه فيتخذ منها نبراسا ، ويقوم بدور ابن مسعود ثانية ، حتى نراه ينكر على رفيقه الزاهد العابد الثقة

الفضيل بن عياض رحمه الله (ت ١٨٧ هـ) اعتزاله ومجاورته في مكـــة . وتركه الجهاد

كان الفضيل ثقة ، وحديثه في الصحيحين يدل على ذلك ، هومن أشهر العباد الزهاد في تاريخ الاسلام ، وأجودهم كلاما ، لكن ابن المبارك لا يرى كل ذلك مكافئا لترك الجهاد وقتال العدو ، فيخشن له الكلام ، حتى يصفه بأنه عابد لاعب بعبادته ، ويبعث له من طرسوس ، وبعد معركة من معاركه ، قبل أن ينفض غبار المعركة عنه ، أبياتا رائعة جدا تظل حجة لكل داعية من بعده .

انها أبيات أكثر من رائعة ، وأكثر من صادقة ، وأكثر من بليغـــة .

فافتح قلبك ، وفك قيوده وأساره ، ليطير ويحلق عاليا مع أبيات ابن المبارك ....

يا عابد الحرمين لو أبصرتنـــا
لعلمت انك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه
فنحورنا بدمائنـــا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل
فخيولنا يوم الكريهة تتعـــب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا
رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا عن مقـــال نبينـــا
قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في
انف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننـــــا
ليس الشهيد بميت لا يكذب [١]

قال ابن المبارك هذا لمن انصرف الى العبادة والمجاورة في الحرم المكي ، وكان الفضيل يلقب بعابد الحرمين ، وله شهرة بكثرة البكاء ، ولذلك غمزه بذكر الدموع ، وكأنه كان مثل بعض المصلين ، يتطيبون بدهن الورد وغيره اتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، فغمزه بذكر العبير الواحد السهل ، في حين كان للنبي صلى الله عليه وسلم ولورثته من العلماء المجاهدين عبير غبار المعارك اضافة لعبير الورد والمسك .

فماذا نقول اليوم لمن ينصرف عن الجهاد والدعوة والأمر والنهي لا الى كثرة العبادة بل الى الراحة والترف وجمع الأموال والحرص على ارضاء زوجته ؟

وهل لنا أن نقول لمتزهد اليوم الا كما قال ابن المبارك : يا عابدا لو أبصرت دعاة الاسلام يصاولون دعاة الكفر والضلال الحزبي لعلمت انك بالعبادة تلعب ؟

---

١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١ / ٢٨٧ .

ولئن انحنت ظهور بعض المتعبدين اليوم من كثرة الصلاة ، وجفت حلوقهم من مواصلة الصوم ، فان دعاة الاسلام قد انحنت ظهورهم بعد الفرائض والسنن من كثرة مجالس التداول في أمور ومصالح المسلمين ، وجفت حلوقهم من كثرة السعي والحركة ، وبذلوا دماءهم، واهتزت حبال المشانق بأجسادهم

● الشيخ الكيلاني ... على الدرب

وتتلاحق من بعد ابن المبارك أجيال وأجيال ، وإذا بالهمم تضعف مرة أخرى ، وإذا بالزهاد والعباد يعتزلون في الرباطات، ويتركون ارشاد الناس ، ويعافون الدعوة فيشيع الاضطراب في المجتمع المسلم مرة أخرى ، فإذا بالقرن السادس الهجري يلد لنا وارثاً صادقاً من وراث تلك الاقباس الاولى لابن مسعود وابن المبارك ، ينتفض ، ويأبى وعيه الانسياق في تيار بدعة الترهب والاختفاء عن الناس ، فيقف ينادي الامة ، ويدلها على الأمراض التي تتهددها .

انه الشيخ القدوة العارف عبد القادر الكيلاني رحمه الله .

كان فقيها ثقة من فقهاء الحنابلة ببغداد ، والغالب على الحنابلة في كل عصورهم الزهد والبعد عن كل ما يعارض التجرد للعلم، وكان شريفاً علوياً من ذرية الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه، وإنما انتسب إلى مدينة كيلان لسكنى آبائه فيها ، ولابن تيمية ثم لابن القيم مدح له ، وهما

اللذان يسميانه بالشيخ القدوة ، كما في أكثر من موضع من مدارج السالكين .

تكلم الشيخ عبد القادر كثيراً ، وصاح بأهل العراق صيحات بليغة رفيعة المعنى والمبنى ، وينتشل لنا أحد تلامذته من تلك الصيحات كلمات يدونها سريعاً والامام يخطب خطبه الاسبوعية سنة ٥٤٥ هـ ، ويودعها كتابا سماه (الفتح الرباني والفيض الرحماني) قد تجد فيه ما يجب رده ، لكنه مملوء بصيحات الحق ، والالتفاتات القيمة ، والتشديد على وجوب الدعوة والأمر والنهي .

فاسمع من صيحات الحق هذه قول عبد القادر رحمه الله أن :

(المتزهد المبتدي في زهده يهرب من الخلق ، والزاهد الكامل في زهده لا يبالي منهم ، لا يهرب منهم ، بل يطلبهم ، لأنه يصير عارفاً لله عز وجل ، ومن عرف الله لا يهرب من شيء ، ولا يخاف من شيء سواه .

المبتدي يهرب من الفساق والعصاة ، والمنتهي يطلبهم .

كيف لا يطلبهم وكل دوائهم عنده ؟

ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه : لا يضحك في وجه الفاسق الا العارف .

من كملت معرفته لله عز وجل صار دالا عليه .

يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا .

يعطى القوة حتى يهزم ابليس وجنده .

يأخذ الخلق من ايديهم .

يا من اعتزل بزهده مع جهله : تقدم واسمع ما أقول .

يا زهاد الأرض تقدموا .

خربوا صوامعكم واقربوا مني . قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل .

ما وقعتم بشيء . تقدموا) [1] ..

قال هذا رحمه الله وهو في الشيخوخة .

وكذلك فهم العالم العامل ، وان كلماته ليهتز لها القلب اهتزازاً .

تأمل قوله : (يا زهاد الأرض تقدموا ، خربوا صوامعكم)

خرب صومعتك أيها الهارب الذي ترزح تحت نير الأفكار الأرضية ، وآراء طواغيت القرن العشرين .

خذ مكانك في صفوف دعوة الاسلام .

• ابن الجوزي يصف حالة الشجعان

وفي ذات الوقت كان داعية آخر في بغداد يحمل مثل هذا القلب الكبير أيضاً ، ويصيح بأهل بغداد .

إنه أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مؤلف (زاد المسير في علم التفسير) و (تلبيس ابليس) وعشرات الكتب النافعة .

ابى الا الصراحة ، فاندفع يفضح ويقول :

(الزهاد في مقام الخفافيش ، قد دفنوا انفسهم بالعزلة عن

---

(١) الفتح الرباني للشيخ عبد القادر / ٧٣ مع حذف .

نفع الناس ، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير ، من جماعة واتباع جنازة وعيادة مريض .

الا أنها حالة الجبناء .

فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون . وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام .) [١]

وهكذا استمرت كلمات الواعين في كل جيل ، لا يسوغون لأحد أن يعتزل ويقعد عن الدعوة إلى الله ولو أكثر العبادة ، ولو استعرضنا الجميع لطال السرد ، ولكن الدكتور حسان حتحوت ــ بارك الله فيه ــ جمع بلاغة الجميع ، وناب عنهم ، وأعطى كلمة الفصل في أبيات واضحة ، وذلك قوله :

حسبوا بأن الدين عزلة راهب
واستمرءوا الأوراد والأذكارا
عجبا أراهم يؤمنــون ببعضه
وأرى القلوب ببعضه كفارا
والدين كان ولا يزال فرائضا
ونــوافــلا لله واستغفــارا
والدين ميدان وصمصام وفــر
سان تبيد الشر والأشرارا
والدين حكم باسم ربك قائم
بالعدل لا جورا ولا استهتارا [٢]

---

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي / ٢٢٤ طبعة محمد الغزالي

(٣) مجلة المسلمون ٣ / ١٩٩ من قصيدة طويلة .

● دع بيتك وراء ظهرك

والقعود في البيوت ، من بعد الاعتزال في المساجد ، أكثر بعدا عن صفة المسلم الكامل . ولذلك كان للصحابة رضي الله عنهم انكار شديد على من يتوارى في بيته ، ويأنس بالقرب من زوجه واولاده ، ويترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ويتخلى عن مكانه الذي يجب أن يحتله في صف المحاربين للطواغيت .

وقد حفظ لنا الرواة عن الصحابي الجليل المبشر بالجنة طلحة بن عبيد الله القرشي رضي الله عنه أنه قال :

(ان أقل العيب على المرء أن يجلس في داره .) [1]

وما كان اعيان العلماء يرضونه بتاتا .

هذا الغزالي رحمه الله يقول :

(اعلم أن كل قاعدا في بيته أينما كان فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر ، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد ، فكيف في القرى والبوادي ومنهم الاعراب والأكراد والتركمانية ، وسائر أصناف الخلق .

وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم ، وكذا في كل قرية . وواجب على كل فقيه – فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية – ان يخرج

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ / ٢٢١ .

إلى ما يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم .)[1]

وهذا ابن تيمية يفسر قوله تعالى (يا أيها المدثر ، قم فأنذر) فيقول :

(فواجب على الأمة أن يبلغوا ما انزل اليه ، وينذروا كما أنذر . قال الله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون . » . والجن لما سمعوا القرآن : « ولوّا الى قومهم منذرين . » .)[2]

وكما تتفاضل الأعمال في الميزان الايماني الاسلامي ، فان العمل الصالح الواحد يتفاضل تطبيقه أيضاً من شخص إلى شخص وظرف إلى ظرف ، ووقت إلى وقت ، بحيث يندب اليه أحد المسلمين دون الاخر ، وفي ظرف دون اخر ، ولكل مسلم عمل من أعمال الخير هو أفضل له من الأعمال الأخرى الفاضلة ، وذكر ابن القيم رحمه الله أن (الشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته : وقوفه في الصف ساعة ، وجهاده اعداء الله ، أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع .

والعالم الذي قد عرف السنة ، والحلال والحرام ، وطرق

---

(١) احياء علوم الدين ٢ / ٣٤٢ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦ / ٣٢٧ .

الخير والشر : مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح .)[1]

فلا يحتجن أحد بأحاديث فضل النوافل والتسبيح ليبرر اعتزاله الناس ، ويترك مهمته الارشادية التي يلزمه اياها علمه الذي تعلمه ، فان مباشرة الدعوة خير من مباشرة النوافل .

● الداعية رحّالة

ولا ينبغي للداعية أن يبتئس ان لم يجد فضل وقت لقيام الليل يومياً ، والاكثار من ختمات القرآن ، فان ما هو فيه من الدعوة وتعليم الناس وتربية الشباب خير وأجزل أجرا ، وقدوته في ذلك ورائده أئمة الدعاة من السلف الصالح الذين كانوا يسيحون لنشر الدعوة وتبليغها ، ويبادئون الناس بالكلام ، ويحتكون بهم احتكاكاً هادفاً ، ولا ينتظرون مجيء الناس لهم ليسألوهم .

هكذا كان شأن الدعاة دوماً .

وعلى داعية اليوم أن يكون رحالة سائحاً في محلات مدينته ، ومدن قطره ، يبلغ دعوة الاسلام .

أنظر مثلا كيف كانت رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسيح في البوادي تبلغ الأعراب كلمة الاسلام وتبشر به ، ولم يكن ثمة انتظار ورودهم إلى المدينة . ألا ترى أن الاعرابي

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم / ٩٣ .

الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أركان الاسلام ، فلما أخبره بها وقال : (لا أزيد عليهن ولا أنقص) كيف كان قد بدأ سؤاله بأن قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

(يا محمد ، أتانا رسولك ، فزعم لنـــا انك تزعم ان الله ارسلك .) [1] ؟

أتاهم رسوله داعياً، وكذلك الناس تؤتى. ومن انتظر أن يأتيه الناس فليس بداعية .

ولو فصلت كلمة هذا الاعرابي لتبين لك كيف فارق هذا الصحابي الداعية المدينة لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم لقـوم هذا ، وكيف فارق أهله وبيته واولاده ، وكيف اجتاز المفاوز وصحراء من بعد صحراء ، وكيف تعرض للمخاطر والحر أو البرد ، ليبلغ دعوة الاسلام .

وهذا شأن الدعوة التي تريد أن تصل إلى اهدافها .

لا بد من تحرك ومبادأة وغدو ورواح وتكلم وزعم .

ليس القعود والتمني من الطرق الموصلة . فافقه سيرة سلفك وقلدهم ، تصل ، والاّ ، فراوح في مكانك ، فانك لن تبرحه .

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٣٢ .

٦ .... غطة من جهبذ

يتمنى المؤمن أن يغفر الله له ويدخله الجنة ، وانه لفوز عظيم نفوزه بمجرد أن نتجاوز باب الجنة بخطوات ، ولكن الطمع بما عند الله طمع حلو لذيذ ، وإذا بنا نعيش بين مدة وأخرى لحظات من اللحظات اللذيذة ، لا نقنع فيها بأن ندلف من باب الجنة فحسب ، ولا أن نبقى في منازلها الواطئة ، بل نطمع أن نكون في عليين ، وفي الفردوس ، من منازلها الرفيعة .

وهنا يكون الكلام المنطقي :

ان من يريد المنزلة العليا القصوى من الجنة ، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة الدنيا .

واحدة بواحدة .

ولكل سلعة ثمن .

وما هذه المنزلة القصوى في الدنيا إلا منزلة الدعوة

إلى الله ، كما يقول الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله في كتابه الآخر الذي سماه (فتوح الغيب) .

كان هو داعية مصلحا ، ولذلك تجد كل كتبه تركز على معنى الدعوة ، ووجوبها .

ان الفائز عند الكيلاني من اختاره الله .

(وجعله جهبذاً وداعياً للعباد ونذيراً لهم وحجة فيهم ، هادياً مهدياً .)

ثم قال : (فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم ، لا منزلة تفوق منزلته إلا النبوة) [1] .

● المؤمن الأخرس متأخر

وكان الشيخ قد عد دونه في المنزلة آخر له (قلب بلا لسان ، وهو مؤمن ستره الله عز وجل عن خلقه ، وأسبل عليه كنفه ، وبصره بعيوب نفسه ، ونور قلبه .) .

فلأن هذا المؤمن لم يملك اللسان ، نزلت مرتبته ، وتأخرت ، وفقد ما في القاب الأول من الهيبة والفخامة ، فالأول : (جهبذ) و (داعية) و (حجة) ، وله ما في هذه الكلمات من اشعاع البهاء ، والثاني : (مستور) فحسب ، وبين جرس هذه الكلمة ولفظها وتلك الكلمات والفاظها من البعد مثل ما بين الأرض والسماء .

---

(١) فتوح الغيب للشيخ عبد القادر / ٤٩ .

ان بوناً شاسعاً ، وطفرة واسعة بين المنزلتين ، منزلة الدعوة ومنزلة الايمان المستور المنعزل ، وسبب البون هو اللسان الناطق بالحق لا غير .

من ملك هذا اللسان فقد بذّ وسبق قافلة السائرين إلى الله .

كلهم يسير إلى الله ، ولكن أين من في المقدمة ، ممن في المؤخرة ؟

وكلهم يدخل ان شاء الله الجنة ، ولكن اين من يدخلها في الزمر الأولى ، ممن يدخلها بعد اعوام من الانتظار في ساحة العرض ؟ ولذلك جعل الكيلاني رحمه الله فقه الداعية لواجبه في تغيير الباطل واظهار الحق منحة ربانية لمن يعلم الله صلاح قلوبهم . وصاغ هذا المعنى بأحرف يسيرة ، لكنها ثمينة ، فقال :

(اذا صلح قلب العبد للحق عز وجل ، وتمكن من قربه ، اعطي المملكة والسلطنة في أقطار الأرض ، وسلم اليه نشر الدعوة في الخلق ، والصبر على أذاهم . يسلم اليه تغيير الباطل ، واظهار الحق) (1) .

وكذلك البلاغة تكون حين تقتبس من مشكاة النبوة ، نسباً وعلماً ، فانه كان رحمه الله في الذروة من الشرف ، علويا صحيح النسب ، كما كان في الذروة من علم الحديث وفقه أقوال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله .

---

(1) الفتح الرباني للشيخ عبد القادر / ١٤٤ .

إنه يقول : ان نشر الدعوة توفيق من الله ، يوفق له مـن يعلم صلاح قلبه ، فهو تشريف ، وليس بتكليف .

ودقق النظر في قوله : (يسلم اليه تغيير الباطل واظهار الحق .)

الباطل يجب أن (يغير) ، يغيره (الداعية) أي يحاربه ، ويزيله ، ويهيل عليه التراب يقبره .

أما ان ترجو من الباطل أن يترك مكانه ويعطيه اياك .

وأما أن تتكلم معه باللغة الدبلوماسية ، فذلك لن يكون ولن يفيد ، انما هو التغيير فقط ينص عليه قانون الدعوة .

• نصل الماضي بالآتي

وإذن ، فإن الإسلام اليوم أحوج ما يكون إلى جماعة من الدعاة الذين يملكون هذه النظرة التغييرية المفاصلة . دعـاة يدركون جيداً واجبهم في هداية الناس ، ويبصرون موقعهم في موكب الدعوة السائر ، وانهم حلقة تصل الماضي بالاتي ، وينشدون :

نحن في ذي الحياة ركب سفار
يصل اللاحقين بالماضينـا
قد هدانا السبيل من سبقونـا
وعلينـا هدايـة الآتينا (١)

---

(١) لعزام في ديوان المثاني / ١٤٩ .

نعم ، تعبوا رحمهم الله ، حتى أوصلوا عقيدة التوحيد لنا ، وربونا ، وهذبونا ، وانتشلونا من مخاطر متلفة ، وعلينا أن نكون أوفياء لهم ، ننفذ عهدنا ، حين أخذوا علينا أن نعمل مثل الذي عملوا .

غرسوا فأكلنا ، ونغرس فيأكلون .

والغرس يقتضي مخالطة الناس ، ومشافهتهم ، والصدع بالحق .

أما أن يختار الخلوة ، ويترك محاربة الأفكار الأرضية ، والمفاسد الخلقية ، فهو كما وصفه مصطفى صادق الرافعي : (يحسب أنه قد فر من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله ، وماذا تكون العفة والامانة والصدق والوفاء والبر والاحسان وغيرها إذا كانت فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل ؟ أيزعم أحد ان الصدق فضيلة في انسان ليس حوله إلا عشرة احجار ؟ وايم الله ، ان الخالي من مجاهدة الرذائل جميعاً لهو الخالي من الفضائل جميعاً .) (٢)

وأي فرق بين المعتزل في رأس جبل ، وبين من يعيش مع الناس أخرس صامتاً ؟

ان مشكلة المسلمين اليوم لا يسببها نقص عددهم ، ومشكلة الدعوة الاسلامية اليوم لا تتمثل في قلة عدد من بقي ثابتاً صامداً

---

(٢) وحي القلم ٢ / ٩٧ .

على اسلامه حين كثر في الأمة ترك الصلاة والابتداع وحمل أفكار الكفر ، فان كل قطر من أقطار الإسلام لا يزال فيه شباب خير كثير عددهم ، ولكن المشكلة في انهم لا يصدعون باسلامهم ، ولا يدعون ، أو يدعون من غير تنسيق بينهم ، وإلى هذا المعنى أرشد الداعية البطل المقدام الفقيه عبد القادر عودة رحمه الله فقال :

(في البلاد الإسلامية اليوم جيل مثقف ثقافة إسلامية عالية حريص على أن يعيد للاسلام ما فقده ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا عيب فيهم إلا أنهم متأثرون باسلافهم إلى حد كبير في بعض الاتجاهات ، حيث يصرفون أكثر جهدهم في العبادات والمواعظ ، ولو أنهم صرفوا أكثر جهدهم في تذكير المسلمين بشريعتهم المعطلة وقوانينهم المخالفة للشريعة وحكم الاسلام فيها لكان خيراً لهم وللاسلام .) (١)

• الامام أحمد يباشر التجميع

وشأن الداعية أن يترصد اخيار الرجال في المجتمع ، فيحتك بهم ، ويتعرف عليهم ، ويزورهم ، ويعلمهم طريق ضم الجهود الاسلامية وتنسيقها ، فيجدد بذلك سيرة الامام الداعية المبجل أحمد بن حنبل .

قالوا : كان الامام أحمد **(اذا بلغه عن شخص صلاح ،**

---

(٣) الاسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه / ٦٥ .

أو زهد ، أو قيام بحق ، أو اتباع للأمر : سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة ، وأحب ان يعرف احواله)[1] .

لم يكن بالمنعزل المتواري الهارب من الناس .

ولا يكون داعية اليوم إلا من يفتش عن الناس ، ويبحث عنهم ، ويسأل عن أخبارهم ويرحل للقائهم ، ويزورهم في مجالسهم ومنتدياتهم ، ومن انتظر مجيء الناس اليه في مسجده أو بيته فان الأيام تبقيه وحيداً ، ويتعلم فن التثاؤب .

وانظر من تطبيق الإمام أحمد لحرصه هذا مثالا يذكرونه في معرض التعريف بشيخ البخاري والترمذي موسى بن حزام .

قالوا : إنه كان ثقة صالحاً ، لكنه (كان في أول أمره ينتحل الارجاء ، ثم اعانه الله تعالى بأحمد بن حنبل ، فانتحل السنة ، وذب عنها ، وقمع من خالفها ، مع لزوم الدين ، حتى مات)[2]

وأنها لكلمات تحوي من معاني الدعوة شيئاً كثيراً .

ان هذا التغيير لم يتم بالأماني المجردة .

الا ترى أن الامام أحمد لزمه ان يجلس معه المجالس الطوال مناقشاً له برفق وسكينة وحكمة وموعظة حسنة حتى استطاع صرفه عن بدعة الارجاء التي توهمه ان العمل ليس شرطاً في الايمان وإنما هو تصديق القلب فقط ، ثم مجالس أخرى علمه

---

(١) مناقب الامام أحمد لابن الجوزي / ٢١٨ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠ / ٣٤١ .

فيها السنن ، ثم مجالس أخرى بعث فيه همة عالية استمر معها حتى موته بالدفاع عن السنة وقمع مخالفيها من أهل البدع والشهوات ؟

انه كذلك طريق الدعوة وسبيل خدمة الاسلام ، وكذلك كان سلفنا من دعاة الإسلام .

لابد من اتصال بالناس .

لابد لك من مجالس معهم تعلمهم فيها .

لابد لك من ترك زوجك وأولادك ومجالس الدنيا وهموم التجارة بضع ساعات في كل يوم ، تتوجه فيها إلى الله ، داعياً أن يعين بك ضالا من ضحايا الطواغيت الحالية ، فتهديه ، أو يعين بك يائساً جامداً ، يستهلكه الحزن على واقع المسلمين ، وتقيده همومه الدنيوية ، فتحركه وتهزه وتغطه غطا .

انها غطة العزم .

غط جبريل عليه السلام نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ثلاثا في غار حراء في أول لحظات نبوته ، فضمه إلى صدره ضما شديداً ، ثم قال له : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) .

وغط النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبدالله بن عباس ، فضمه إلى صدره ، وقال : (اللهم علمه القرآن) .

وغطك الدعاة .

وعليك أن تغط غيرك هذه الغطة الواجبة التي تضع حداً فاصلا بين عهد الرخاوة وعهد حمل الامانة بحزم وعزم ووفاء .

لقد أعان الله تعالى بأحمد آلافا من مثل موسى بن حزام

هذا ، وبهم استطاع أن يرد فتنة وكيد الجهمية والمعتزلة وينصر السنة ، فكم يا ترى سيعين الله بك اليوم من ترد بهم كيد الشرق والغرب ؟

لقد كان السلف رضي الله عنهم أفرح ما يكونون عند العمل للدعوة وهداية أحد على أيديهم .

كان عبد القادر الكيلاني يقول :

(سبحان من القى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي .)

ثم يقول :

(إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي : شبعت وارتويت ، واكتسيت ، وفرحت ، كيف خرج مثله من تحت يدي ؟)[1]

هذا شبعهم وريهم ، لا في تأليف الكتب فحسب ، والتي تكرر المعاني الواحدة .

العالم من كان داعية ، أما مؤلف الكتب فحسب فنقول له :

لست والله عالماً أو حكيماً   انما أنت تاجر في العلوم[2]

الاسلام اليوم لا يحتاج مزيد بحوث في جزئيات الفقه بقدر ما يحتاج إلى دعاة يتكاتفون .

---

(١) الفتح الرباني / ٢٧ .

(٢) لعزام في ديوان المثاني / ٩٨ .

● فقه الوزير الداعية

واسمع إلى طريف ما فهمه الفقيه المحدث العابد الوزير العباسي الصالح ابن هبيرة الدوري رحمه الله من قوله تعالى : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) وقوله تعالى : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) إذ يقول :

(تأملت ذكر أقصى المدينة ، فاذا الرجلان جاءا من بعد في الأمر بالمعروف ، ولم يتقاعدا لبعد الطريق) [1] .

ويا له من استخراج بديع مع بساطته يجعل الداعية يتأمل ويقول : هل يتأتى للداعية اليوم أن يستكثر ما توجبه الدعوة عليه من حركة يومية بعيدة بعد أن يعرف هذا الذي كان عليه سلفه من دعاة القرون الاولى وصفتهم هذه التي خلدها القرآن في الجوب والتجول والذهاب إلى الاقاصي بغية بث الدعوة والأمر بالمعروف ؟

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا قوم اتبعوا المرسلين » .

(فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه . وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً ، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ، ولكنه سعى بالحق الذي استقر

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ٢٦٩ .

في ضميره وتحرك في شعوره . سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون . وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق ، وفي كفهم عن البغي ، وفي مقاومة اعتدائهم الاثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان ، ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته ، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها .) [1]

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣ / ١٦ .

٧ .... جهاد الحجة

وعي المسلم لوجوب الدعوة إلى الله ، وفقهه لهذه المسألة الحدية ، ووضوح رؤيته لهذا المعلم البارز من معالم الطريق الاسلامي : كل ذلك يحدد نقطة البدء والانطلاق في مسيرة الفرد المسلم في الحياة ، وفي خطة أي اصلاح جماعي ، ومن ثم وجب الالحاح في بيان هذا الواجب ، وتطبيق السلف الصالح له ، وأمثلة من تجدد سيرة وكلام السلف في ذلك في قرننا هذا .

وكما رأينا عبدالله بن مسعود يرصد نفسه في الكوفة لتفنيد العزلة ، نرى الحسن البصري سيد التابعين رحمه الله يرصد نفسه في البصرة لبعث همم الناس ، وشرح معنى الاصلاح ، فيتلو على أهل البصرة قول الله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » ، ثم يقول :

(هو المؤمن أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته .

فهذا حبيب الله .

هذا ولي الله)

لا غيره ممن يعتزل ويجمد ويكون مستوراً .

وحين نقل ابن القيم كلام الحسن هذا عقّب فقال :

(فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد) [1]

وبمسارعته هذه إلى فهم كلام الحسن ، وباتحاد قوله مع قول الكيلاني الذي ذكرناه قبل ، دلل على أن وحدة المفاهيم تابعة لوحدة المنهج في البحث .

● اقباس متشابهة من نور واحد

فلأن منهجهم هو جعل القرآن والحديث الصحيح مصدر الفهم ، وبناء الاستعداد النفسي لقبول جميع معاني القـــرآن والحديث التي يشير اليها العقل السليم والظاهر اللغوي ، اتحدت أقوال ومفاهيم هؤلاء الرهط الفاضل الذين ننقل عنهم ، ابتداء بالصحابة ، ومن تبعهم باحسان ، ومرورا بابن الجوزي والشيخ عبد القادر وابن تيمية وابن القيم ، وانتهاء ببعض أفاضل هـــذا العصر ، كالرافعي واقبال وعبد الوهاب عزام ، وبقادة الدعوة كالامام البنا ، والمودودي ، وعودة ، وسيد قطب . وسيظل

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١ / ١٥٣ .

سير هذه الطائفة الظاهرة على الحق ، الآخذة بالمعنى الظاهر ، إلى يوم القيامة ، بعكس منهج الطوائف الأخرى التي حددتها ابتداء تأثرات فلسفية ، وميول ابتداعية ، وشهوات بدنية ونفسية ، وتخوفات ، وجبن وحرص ، فما عادت تفتش الا عما يوافق الذي وقر في عقولها ونفوسها ، وتعرض عما يفضحها ، أو تتمحل وتتكلف لصرفه عن معناه الظاهر .

● في سورة العصر كفاية

وسطر واحد في القرآن فيه كفاية وغنى لاصحاب المنهج الأول الصحيح ، وذلك قوله تعالى .

« والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

بل يكفيهم ربعها الذي وصف المتواصي بالحق بالربح .

ولذلك وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة العصر بأنها تعدل ثلث القرآن [1] .

فكلمتان فحسب ، لأنهما بينتا وجوب الدعوة ، كانتا ربع ثلث القرآن .

فكل واحد في خسر ، (الا من كمل قوته العلمية بالايمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته ، فهذا كماله في نفسه ، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره اياه به ، وبملاك ذلك كله ،

---

(١) صحيح البخاري ٦ / ٢٣٣ .

وهو الصبر . فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه اياه ذلك ، ووصيته بالصبر عليه . ولهذا قال الشافعي رحمه الله : لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم)[1] .

فالله سبحانه (لم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه ، حتى يوصي بعضهم بعضاً ويرشده اليه ، ويحثه عليه ، فإذا كان من عدا هؤلاء ، فهو من الخاسرين)[2] .

أو باحرف أخرى يقولها الداعية الأستاذ محمد محمود الصواف ان :

(شرط النجاة من الخسران جعله الله تبارك وتعالى معلقاً بمعرفة الناس للحق ، وإذا عرفوه الزموا أنفسهم به ، ومكنوه من قلوبهم ، وعاشوا بالحق ، وللحق ، ولا يعفون من المسؤولية ولا ينجون بأنفسهم إذا عرفوا الحق ولم يبشروا به ويدعوا الناس اليه ويحملوهم حملا على التمسك بالحق واتباع الحق .

فالدعوة إلى الحق والتبشير به : فرع الإيمان بالحق ومعرفة الحق ، ولا يتم الأصل بدون هذا الفرع ، الذي هو الدعوة إلى الحق ، والتبشير به بين الناس ، ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح ، بعد أن يعرفه ويتبعه ، فهو من الخاسرين ، لأن أمر الله تبارك وتعالى صريح في هذه الآية ، وهو التواصي بالحق ، والتواصي يحمل معنى الدعوة إلى الحق بكل صراحة وقوة ، فإذا عرفت الحق ، ورأيت أهل الباطل يزيغون عن

(١) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١ / ٣٣ .
(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم / ٧٣ .

الحق ، ولم تدعهم إلى اتباع الحق ، وتوصهم باتباع طريق الحق الذي هو الصراط المستقيم ، والنور المبين ، فلاشك أنك من الخاسرين ، لأنك لم تنفذ أمر الله ، وتتواص بالحق ولانك أخذت الحق لنفسك ولم تحمل عليه غيرك من الزائغين المنحرفين أو المخطئين التائهين ، والمسلم لا يعيش لنفسه فقط ، بل يعيش لنفسه وللناس فإذا أصلح نفسه : وجب عليه اصلاح غيره ، والدعوة إلى الاصلاح تشمل الناس جميعاً ، كل على حسب طاقته ، وبقدر نطاقه الذي يحيط به والنص في هذه الآية صريح ، لا يقبل التأويل)[1] .

● الداعية مجاهد مهاجر

وبمقابل ذلك ، منح الله تعالى المتواصين بالحق ، من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، الذين يقذفون بحجج الله وبيناته على آراء العقول الزائغة ، أجر وثواب المجاهدين والمهاجرين ، فعدّ الأمر والنهي جهادا ، والثبات على الدعوة هجرة .

وقال ابن القيم : (ولا ريب ان الأمر بالجهاد المطلق انما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله: «فلا تطع الكافرين وجاهدهم به » أي بالقرآن « جهاداً كبيراً » .

فهذه سورة مكية ، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة .)[2]

(١) عدة المسلمين في معاني الفاتحة وقصار السور / ٨٧ .

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٢ / ٥٨ .

جاهدهم بالقرآن يا أيها النبي ، صلى الله عليك وسلم .
وجاهدوهم بالقرآن ، يا ورثة وأتباع هذا النبي صلى الله عليه وسلم .

أي أن نقف لآراء عقولهم القاصرة بالمرصاد ندمغها بحجج من هذا القرآن ، فإذا باطلهم هو زاهق .

فالدعوة ، والأمر والنهي ، والتواصي ، نوع من الجهاد ، ولذلك ساغ لنا في فقه الدعوة أن نتعرف على كثير من جوانب وصفات الدعوة والداعية قياساً على أحكام جهاد القتال . بل لذلك أيضاً وجب على الداعية أن يفهم آيات وأحاديث الجهاد على أنها خطاب له هو ايضا وهو في أمره ونهيه ان حجبه عن خوض القتال تقدير خسران المعركة وظهور المجازفة ووجود المثبطين والخونة الذين يضربون من الخلف ، ولذلك أيضا يحق للآمر الناهي أن يمني نفسه بثواب المقاتلين ان شاء الله .

ثم الداعية بعد ذلك له اجر المهاجرين ، كما قرر الامام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » ، فقال :

(قالت طائفة من السلف : هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد الى يوم القيامة . وهكذا قوله تعالى : « والذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم » . يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية ، ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من

العدو ، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك ، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .)[1]

• الحاح الكيلاني في بيان وجوب الدعوة

وكما اخترنا الالحاح في بيان وجوب الدعوة الى الله ، واعتبرناه المنطلق ، اختار الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله الالحاح في بيان هذا الواجب ، وعاد يذكر أهل بغداد كل أسبوع في خطبته ، أو بالأحرى عاد يذكر خيار أبناء الأمة الذين تجمعوا من أطراف الأرض في عاصمة الاسلام .

نتدرج معه في أيامه .

يصف الدعاة أولا ، فيقول :

(هم قيام في مقام الدعوة ، يدعون الخلق الى معرفة الحق عز وجل . لا يزالون يدعون القلوب .)[2]

ويجعل اتاحة الله سبحانه لعبده هذا المقام الشريف أكبر نعمة ، ويعد انشغاله به دليلاً على صحة تبعيته وخلافته للرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

(من صحت تبعيته للرسول صلى الله عليه وسلم البسه درعه وخوذته ، وقلده سيفه ، ونحله من أدبه وشمائله وأخلاقه ، وخلع عليه من خلعه ، واشتد فرحه به : كيف هو من أمته ؟

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨ / ٢٨٤ .

(٢) الفتح الرباني للشيخ عبد القادر / ٧ .

ويشكر ربه عز وجل على ذلك ، ثم يجعله نائبا له في أمته ، ودليلا وداعيا لهم الى باب الحق عز وجل .

كان هو الداعي والدليل ، ولما قبضه الحق عز وجل أقام له من أمته من يخلفه فيهم ، وهم آحاد أفراد ، من كل الف الف واحد ، يدلون الخلق ، ويصبرون على أذاهم ، مع دوام النصح لهم . يتبسمون في وجوه المنافقين والفساق ويحتالون عليهم بكل حيلة حتى يخلصوهم مما هم فيه ، ويحملوهم الى باب ربهم عز وجل) [1] .

ثم يدعوهم الى اماتة الهوى والنفس الامارة بالسوء ، لتحصل حياة الدعوة .

(موت ثم نشر ، ثم اذا شاء انشرك له ، ردك الى الخلق لتنظر في مصالحهم وتردهم الى بابه . يجيء لك الميل الى الدنيا والآخرة لتتناول أقسامك منهما . تجيء لك القوة على مقاساة الخلق ، فتردهم عن ضلالهم .) [2]

ثم يوجز صفات الداعية وشروط التوثيق في صفة واحدة جامعة ، صفة التجرد الكامل والانغماس بكله في الدعوة ، حتى ينسى نفسه ، ويعود لا يرى الا من يدعوهم ، ولا يتكلم الا بما يفيد من يدعوهم ، فعالمه ، وكونه الفسيح ، لا يحوي تجارة ، ولا شهوة ، ولا منصبا . ليس في هذا الكون الا الذين يباشر دعوتهم ، هم تجارته ، ولذته ، ومنصبه .

(يصير كأن لا نفس له ولا طبع ولا هوى . ينسى طعامه

---

(١) (٢) الفتح الرباني / ٨٣ / ١٠٧ / .

وشرابه ولباسه . يصير ناسيا لنفسه ، ذاكرا لخلق ربه عز وجل ، يخرج بقلبه عن نفسه والخلق ، ويبقى بربه عز وجل ، كل طلبه نفع الخلق ، قد سلم نفسهالى يد قضاء ربه عز وجل) [1] .

فهذا نموذج الدعاة .

هذه صفة من يريد أن يكون ضمن القاعدة الصلبة التي يبنى عليها بناء الاسلام الآن .

ووالله ، لا نجاح للدعوة ، ولا وصول ، إن اعطيناها فضول الأوقات ، ولم ننس أنفسنا وطعامنا .

ان جاهلية القرن العشرين زادت ظلام القرون الأخيرة ظلاما ، فلا ترض العيش في الظلام ، بل :

كن مشعلا في جنح ليل حـــالك
يهدي الأنام الى الهدى ويبين
وانشط لدينك لا تكن متكاسلا
واعمل على تحريك ما هو ساكن
وابدأ بأهلك ان دعوت فانهـــم
اولى الورى بالنصح منك واقمن
والله يأمر بالعشـــيرة اولا
والامر من بعد العشيرة هين [2]

---

(١) الفتح الرباني / ٢١١

(٢) لوليد الاعظمي في ديوان الزوابع / ١٢٤ .

٨ .... أصول فقه العمل الجماعي عند السلف

الطريق الى الله طريق واضح مستقيم .

خطوت خطوتك الأولى فيه باصغائك لمن دعاك الى أن تذر آراء الطواغيت الذين يشرعون من دون الله .

ثم تمردت على خطط الترويض ، وأبقيت صفتك ، شبلا حفيد أسود ، ولم يجعلوك ظبيا جفولا .

ثم نطقت ، ولم تسكت وتتخارس ، ودعوت الى الله امرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، وكنت من الذين « يعلمون الحق ويرحمون الخلق » كما يقول ابن تيمية [١] .

ترحمهم بانتشالهم مما هم فيه من الضلال الذي أرهقهم وحرمهم الطمأنينة والسكينة . أرهق قلوبهم بالقلق ، وعقولهم بالحيرة ، وأبدانهم بالتعب والمرض .

ولا يزال الأئمة ينادونك :

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦ / ٩٦ .

(ألست تبغي القرب منه ؟

فاشتغل بدلالة عباده عليه ، فهي حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

أما علمت انهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد ، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم ؟)[1] .

ولا يزالون يسألونك :

(هل كان شغل الأنبياء الا معاناة الخلق ، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر ؟)[2] .

ولا تزال أنت في استجابة من بعد استجابة ونعما الذي تفعل .

وخطواتك المباركة هذه قد أوصلتك الى منتصف الطريق ، فواصل الخطو تصل .

● كن من رجال العامة

خطواتك الأخرى في هجرتك الى الله أن تتسع في نطقك بالحق ، وتقصد العامة ، فتكون لهم اماما ، وقدوة ، وقائدا ، ومرشدا .

أعد سيرة سلفك من الدعاة رحمهم الله .

كانوا أئمة للعامة ، يتصدون لارشاد كل الناس ، فيتزايد حب القلوب لهم تدريجيا ، ويرون فيهم القدوة الصحيحة التي لا مطعن فيها ، فيتبعونهم ، ويمتثلون أمرهم .

---

(١) (٢) صيد الخاطر لابن الجوزي / ٣٨ / ٤٢ .

هذا الزاهد المشهور بشر بن الحارث الحافي رحمه الله ، يعدد ثلاث خصال امتاز بها الامام أحمد بن حنبل ، وفضل بها عليه ، وقصر هو عنها ، أحدها : (انه نصب اماما للعامة)[1] .

ووصفوا الاوزاعي بأنه : (كان رجل عامة)[2] .

ومثله المحدث الثقة الفقيه أبو اسحاق الفزاري . قالوا : كان رجل عامة ، وهو الذي أدب أهل الثغور الاسلامية التي في أعالي بلاد الشام والجزيرة تجاه الروم ، وعلمهم سنن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يأمر وينهى ، واذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه[3] .

وخالد بن عبدالله الواسطي ، أحد المحدثين الثقات من شيوخ البخاري ، وصفوه بأنه كان (رجل عامة)[4] .

فحلل هذه التعريفات ، تجد أنهم كانوا دعاة ، يعلمون الناس ، لم يحملهم علمهم على حصر أنفسهم بين الجدران ، بل كانوا ينزلون الى الجموع ، ويقودونها في مواقفها السياسية ، كما قاد الامام أحمد جموع الخير في معارضةالجهمية والمعتزلة الذين أرادوا حرف عقيدة الأمة ببدعة خلق القرآن ، ونازع الدولة كلها حين أرادت فرض البدعة بالقوة ، حتى نصره الله تعالى بالمتوكل ، اذ كان المتوكل صحيح العقيدة ، فبدل جهاز الدولة ، وطهره من المبتدعة ، وأخمد أمرهم وكبته .

وانما نعني بالعامة جمهور الناس ، المثقف منهم والأمي ، لا

---

(١) احياء علوم الدين ٢ / ٢٣ .

(٢) (٣) (٤) تهذيب التهذيب لابن حجر ٦ / ٢٤١ ، ١ / ١٥٢ ، ٣ / ١٠٠

لاصطلاح الحادث الذي يعني الجهال .

ولم يكونوا رحمهم الله بالذين ينسون الأعراب وأهل الأرياف حين يقودون أهل المدن ، بل كانوا يلمسون أهمية وحدة عقائد ومواقف هؤلاء وهؤلاء ، فيرصدون لهم شيئا من جهودهم وأوقاتهم .

هذا الامام الزهري زعيم المحدثين ، ربى أجيالا من أهل الحواضر الاسلامية ، وجعلهم أئمة في الحديث ، وما كان ذلك يكفيه ، بل (كان ينزل بالأعراب يعلمهم) ، يحفظ من بقي صحيح العقيدة ، ويتلطف مع من نجح أهل البدع في حرفه ، فيرجعه الى التوحيد .

وجدد آخرون سيرة الزهري ، منهم الفقيه الواعظ أحمد الغزالي ، أخو الامام صاحب الاحياء ، فانه كان (يدخل القرى والضياع ، ويعظ لأهل البوادي ، تقربا الى الله) [١] .

● ابن تيمية يسوغ العمل الجماعي

وكان هؤلاء الأئمة رحمهم الله أصحاب فقه عظيم ، عرفوا المقاصد العامة للشريعة ، وجواز ، بل وجوب كل ما يحقق هذه المقاصد وان لم تنص عليه ، وعرفوا ان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، فانخلعوا عن الفردية حيث اقتضى الأمر هذا الانخلاع وتكاتفوا ، وعملوا عملا جماعيا ، وأوضحوا في عدد من الفتاوى الواضحة الصريحة شرعية العمل الجماعي في

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦ / ٦٢ .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مهما تسمى هذا العمل الجماعي بأسماء مختلفة ، كالجماعة ، والحزب ، والكتلة ، وغير ذلك . واذا كان العمل جماعيا فلا بد أن يكون له قائد ورئيس ، سواء سمي زعيما ، أو مرشدا ، أو رأس الحزب .

وقد تستغرب أشد الاستغراب حين تعلم أن تسويغ انشاء الجماعات العاملة لغايات شرعية ، وتسويغ مثـــل هذه الاصطلاحات التي تظنها حديثة ، قد ورد في كلام الفقهاء والأئمة القدماء ، مما يعطينا صورة واضحة عما تحوي بطون الكتب الفقهية من فقه حركي اسلامي مجهول لدينا ينتظر من ينتزعه منها وينشره للدعاة .

اسمع قول ابن تيمية في شرعية العمل الجماعي ، مما لا تكاد تصدق انه من كلا م القدماء .

يقول رحمه الله :

(وأما لفظ « الزعيم » فانه مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين ، قال تعالى : « ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم » فمن تكفل بأمر طائفة فانه يقال : هو زعيم . فان كان قد تكفل بخير كان محمودا على ذلك ، وان كان شرا كان مذموما على ذلك .

وأما « رأس الحزب » فانه رأس الطائفة التي تتحزب ، أي تصير حزبا ، فان كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون ، لهم مالهم ، وعليهم ما عليهم . وان كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا ، مثل التعصب

لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل والاعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق والباطل ، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ، فان الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونهيا عن التفرقة والاختلاف وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ، ونهيا عن التعاون على الاثم والعدوان) [1] .

انه من أثمن النصوص التي تحج وتفند رأي من يرى أن العمل الجماعي بدعة غريبة على الأساليب الاسلامية .

وانه لنص رائع يحفز الدعاة لجمع أمثاله وجعلها محور فقه الدعوة ، فتحوز الدعوة رسوخا جديدا ، بما تملكه هذه النصوص من هيبة قائليها ، وبما تؤدي اليه من القيام بدور القول الفصل حين يسارع مستعجل واهم ، أو خائر نائم ، الى تبديع من يعمل من دعاة الاسلام العمل الجماعي مع اصحاب له من الدعاة آخرين .

وأنّى يكون في العمل الجماعي نوع بدعة وهو الأصل الموروث عن الأنبياء عليهم السلام ؟

قال تعالى : « قل هذه سبيلي ، ادعو الى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني » .

قال ابن القيم : (قال الفراء وجماعة : ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو . يعني : ومن اتبعني يدعو الى الله كما أدعو . وهذا قول الكلبي . قال : حق على كل من اتبعه أن

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١ / ٩٢ .

يدعو الى ما دعا اليه)[1] .

وقال تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير » .

قال ابن القيم : (فالربيون هنا : الجماعات ، باجماع المفسرين ، قيل : انه من الربة ، بكسر الراء ، وهي الجماعة . قال الجوهري : الربي واحد الربيين ، وهم الألوف من الناس)[1] .

فالأنبياء عليهم السلام قاتل معهم الألوف .

وسيرة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم مثل واضح لذلك .

وورثة هذا النبي ، وأولئك الأنبياء ، لهم اسوة حسنة بهم ، لا يتفردون ، بل يسيرون الوفا .

● يأمرون بالمعروف في رجال معهم

وهذا المعنى فقهه الصحابة والسلف الصالح وعيا كاملا ، فلم يكتفوا بالدعوة الفردية ، وانما أسسوا الجماعات للدعوة الى الله وعملوا عملا جماعيا .

منهم الصحابي هشام بن حكيم بن حزام القرشي رضي الله عنه .

قال الزهري : (كان يأمر بالمعروف في رجال معه)[1] .

فانظر قول الزهري : في رجال معه .

---

(١) (٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١ / ١٥٤ / ١٢٦ .

(٣) تهذيب التهذيب ١١ / ٣٧ .

فهو قد كون جماعة آمرة ، ودلل على أن الأمر بالمعروف لا بد له من عصبة ، ومتى كانت عصبة كانت دعوة .

ثم ما فتيء أفاضل العلماء يتخذون لهم جماعة وأصحابا للقيام مجتمعين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما كان أمر عبد الرحيم بن محمد العلثي البغدادي الفقيه المحدث الزاهد . قالوا : (كان شيخا جليلا ، عالما ، عارفا ، من أجل شيوخ الحديث ، ملتزما بالسنة ، زاهدا ذا فضل وورع ، وأدب وعلم .

وقال البرزالي عنه : محدث بغداد في وقته ، موصوف باتباعه السنة ونصرها ، والذب عنها .

قال الذهبي : وله أتباع وأصحاب يقومون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[1] .

نعم ، شرط واحد يحدد رأس هذه الجماعة به قبول الانضمام لجماعته ، وهو أن يتحرى الصالح من الرجال ، المؤمن الآكل للحلال ، ليكون في اعانته توفيق من الله ، وأثر ، والا فان كان من المخلطين غير المتحرين لشروط الشرع في معاملاته وسلوكه ومعيشته رفع الله عن عمله البركة .

وهذا هو مذهب الدعاة القدماء .

قال ابن الجوزي :

(قال ابن عقيل : رأينا في زماننا أبا بكر الاقفالي ، في أيام القائم ، اذا نهض لانكار منكر استتبع معه مشايخ لا يأكلون الا

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢ / ٣١٦ .

من صنعة أيديهم ، كأبي بكر الخباز ، شيخ صالح أضر – أي صار ضريرا – من اطلاعه في التنور ، وتبعه جماعة ما فيهم من يأخذ صدقة ولا يدنس بقبول عطاء – أي هدية من رجال الحكم – صوام النهار ، قوام الليل ، أرباب بكاء ، فاذا تبعه مخلط رده وقال : متى لقينا الجيش بمخلط انهزم الجيش)[1] .

وكذلك الوعي والفقه الصحيح والتمييز حين يكون .

وبدون مثل هذه الشروط الصعبة تغدو الجماعة الاسلامية مأوى للضعفاء ، وتفقد صلابتها ، ويحرمها الله نصره .

وان مثل هذه النصوص لهي اكتشافات ثمينة يجب أن تأخذ دورها في الفقه الحركي لتبين أصوله التي استمد منها .

● لا يشترط اذن السلطة

وقد تطرق الغزالي فبحث أمر جواز تكوين جماعة للأمر بالمعروف من ناحية موضوعية ، ودلل على عدم اشتراط الشريعة اذن السلطة في ذلك ، وان ذلك الأوفق للقياس .

قال رحمه الله :

(قال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك ، لأنه يؤدي الى تحريك الفتن ، وهيجان الفساد ، وخراب البلاد .

وقال آخرون : لا يحتاج الى الاذن – وهو الأقيس – لأنه اذا جاء للآحاد الأمر بالمعروف ، وأوائل درجاته تجر الى ثوان ،

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزي / ١٤٥ .

الى ثوالث ، وقد ينتهي لا محالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعاون ، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه .

ونحن نجوز للاحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار ، قمعا لأهل الكفر ، فكذلك قمع أهل الفساد جائز ، لأن الكافر لا بأس بقتله ، والمسلم ان قتل فهو شهيد ، فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله ، والمحتسب الحق ان قتل مظلوما فهو شهيد .

وعلى الجملة ، فانتهاء الأمر الى هذا من النوادر في الحسبة ، فلا يغير به قانون القياس ، بل يقال : كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده ، وبسلاحه ، وبنفسه ، وبأعوانه) [1]

وهذا نص يكتب بماء الذهب .

وعلى الدعاة أن يحفظوه عن ظهر قلب .

وهو دليل على أن في كتب التراث مناجم للفقه الحركي كثيرة .

وللغزالي كلام آخر في تفنيد اشتراط اذن السلطان في الأمر بالمعروف من المفيد أن نقرنه بكلامه هذا في تجويز الاجتماع على الأمر والنهي .

قال رحمه الله :

(قد شرط قوم هذا الشرط ، ولم يثبتوا للآحاد من الرعية

---

(١) احياء علوم الدين ٢ / ٣٣٣ .

الحسبة ، وهذا الاشتراط فاسد ، فان الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى ، اذ يجب نهيه اينما رآه على العموم ، فالتخصيص بشرط التفويض من الامام تحكّم لا أصل له) .

ثم قال :

(فان قيل : في الأمر بالمعروف اثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه ، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقا ، فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية الا بتفويض من الوالي وصاحب الأمر . فنقول : اما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام ، والكافر ذليل ، فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ، وما فيه من عز السلطنة والاحتكام لا يحوج الى تفويض ، كعز التعليم والتعريف ، اذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والايجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بجهله لا يحتاج الى اذن الوالي ، وفيه عز الارشاد وعلى المعرف ذل التجهيل ، وذلك يكفي فيه مجرد الدين ، وكذلك النهي) .

ثم خلص الى أن (استمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع باجماعهم على الاستغناء عن التفويض ، بل كل من أمر بمعروف فان كان الوالي راضيا به فذاك ، وان كان ساخطا له فسخطه له منكر يجب الانكار عليه ، فكيف يحتاج الى اذنه في الانكار عليه ؟ ويدل على ذلك عادة السلف في الانكار

على الأئمة ، كما روي أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد ، فقال له رجل : انما الخطبة بعد الصلاة . فقال له مروان : اترك ذلك يا فلان . فقال ابو سعيد ، أي الخدري : أما هذا فقد قضى ما عليه . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكرا فلينكره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان .

فلقد كانوا فهموا من هذه العموميات دخول السلاطين تحتها ، فكيف يحتاج اذنهم ؟)[1] .

فهذا طرف أيها المسلم الغيور مما كان عليه السلف رضي الله عنهم من فقه الدعوة والعمل الجماعي .

---

(١) احياء علوم الدين ٢/٣١٥

٩ .... فقه العمل الجماعي في صياغته الحديثة

نكبتان كبيرتان حدثتا في تاريخ الاسلام ، أتعبتا عموم المسلمين ، ولمدى أجيال ، بخلاف نكبات صغيرة محدودة الأثر كثيرة .

النكبة الأولى : أحدثها هولاكو ، وبلغت ذروتها باحتلاله بغداد عاصمة الاسلام .

والناظر لهذه النكبة يجد انها ما كانت بدعة عما يصيب الأمم في فترات ضعفها ، وتوقعها الكثير من العلماء ، وحذروا الأمة وأولي الأمر من وقوعها قبل سنين طويلة من السنة التي وقعت فيها ، وهي سنة ٦٥٦ هـ ، لما رأوه من تردي أحوال العامة في عقيدتها وأخلاقها ، وبعد جهاز الدولة عن الجد والتجرد ، وضعف هيمنة الخلفاء ، وعزوف جمهور العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتهائهم بالجدل والمناظرات

الجافة الموغرة للصدور [1] .

وقد حاول بعض متأخري الخلفاء اصلاح الأحوال بنظام الفتوة الذي حرف به سيرة كثير من العامة الى سيرة شبه عسكرية، الا أن اصلاحه كان مخروقا ، لأنه لم يعتمد العقيدة أساسا تربويا لنظامه ، فتحول النظام الى نوع من اللهو .

وهذا هو الذي يفسر لنا ذلك الذهول الذي أصاب معظم الأمة بعد تلك النكبة ، وحيرتهم ، ولولا ان أتاح الله للأمة الامام ابن تيمية ، بما أعاده من الثقة ، وأوضحه من فقه العمل ، لكان الذهول أطول ، الا أن بعض أصحاب القلوب الحية من العلماء كانوا أسرع الى فهم كلام ابن تيمية ، فعاونوه ، أو نسجوا على منواله ، ورتقوا بعض الخرق الكبير .

ومع ذلك ، فيجب أن لا نبالغ في تصوير أثر الاستدراك الذي قام بـه ابن تيمية وصحبه ، فانه كان محدود الأثر ، واستمرت أحوال العامة في التردي ، واستمرت تجزئة العالم الاسلامي الى دويلات صغيرة متنازعة ضعيفة .

وبعد قرون من نكبة بغداد، استطاعت الدولة العثمانية في عصرها الأوسط ، وبمجيء بعض السلاطين الأقوياء الذين تمكنوا من توسيع رقعتها ، أن ترث هيبة العباسيين ، وتعيد الى الأذهان

---

(١) أشار الغزالي في مواضع من الاحياء الى مثل هذه الظواهر ، وكتب فيها الندوي خلال كتابه (رجال الفكر والدعوة في الاسلام) في طبعته الثانية ، ولأكرم العمري بحث في أخلاق العامة آنذاك نشره في مجلة كلية الدراسات الاسلامية ببغداد .

معنى الخلافة الأقرب الى سمتها الأول الذي عهده المسلمون في أواسط الخلافة العباسية ، ان لم نقل : سمتها الأقدم من ذلك ، واستمرت الدولة العثمانية حتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد رحمه الله جديرة بأن يوصف حكمها بأنه حكم اسلامي ، على عيوب كثيرة ، ونقص في تطبيق بعض الأحكام الشرعية في آخر عهدها ، وعلى ظلم من بعض الولاة الذين أساء السلاطين اختيارهم أحيانا . ولا يقول بخلاف قولنا هذا الا متأثر بتزييف حقائق التاريخ الحديث ، ذلك التزييف الذي قامت به المجامع الاستشراقية والدوائر التبشيرية ، واستخدمت فيه عملاءها من الكتاب أو ضحاياها من الذين تقمصهم نوع من التطرف القومي العربي .

وأما النكبة الثانية : فاحتلال الجيوش الانكليزية والفرنسية لبلاد الاسلام في الحرب العالمية الأولى ، وقضاؤهم على آخر صورة يمكن أن تسمى بأنها اسلامية كما قلنا ممثلة في الحكم العثماني أو بعبارة أدق : قضاؤهم على أي احتمال قريب لتقويم انحراف الحكم العثماني عن الاسلام ، حين حرف حزب الاتحاد والترقي بانقلابه على عبد الحميد ، قوانين شرعية كثيرة ، وحرف مناهج التربية ، وأشاع الطورانية ، أي القومية التركية ، ورضي السذج من أركان ذلك الحزب تدخل الأيادي اليهودية والماسونية في الحزب وسياسة الدولة .

وكما جعل هولاكو احتلال بغداد هدفا معنويا مهماً أراد به كسر معنويات عموم الأمة الاسلامية ، فكذلك جعل الحلفاء ،

أو الانكليز بالتحديد، أو تشرشل نفسه، احتلال بغداد والقدس هدفا معنويا ، مع التركيز على احتلال بغداد بالذات لكسر معنويات الأمة ، واعادة احتلال هولاكو لها الى الأذهان ، كما كشفت عن ذلك البرقيات المتبادلة بين قائد الحملة الانكليزية لاحتلال العراق خلال الحرب العالمية الأولى ، وبين وزارة المستعمرات [1] .

* * *

وبرزوح البلاد الاسلامية تحت حكم الجيوش الاستعمارية ، أو تحت حكم المماليك الذين نصبوهم ووجوههم من وراء ستار ، عادت الجاهلية الى أرض البلاد الاسلامية ، وضربت أطنابها ، وتمكنت من قيادة المؤسسات السياسية، والأجهزة التربوية ، والبيوت التجارية والمالية ، واستطاعت بذلك من دخول القلوب بالترغيب والترهيب .

وبعودة الجاهلية ، عادت الحاجة الى من يجاهدها ويعيد حكم الاسلام .

● مبادرة عاكستها الظروف

وحين أذهلت المخلصين بدعة الانحراف الضخمة التي جاء بها حزب الاتحاد والترقي حاول بعض السذج منهم مناهضتها فورا ، ففشلوا ، في قصص مشهورة ، الا أن المحاولة الواعية جاءت بعد سنين من بغداد ، على يد رجل من كبار العسكريين

(٢) كتاب (حرب العراق ١٩١٤ - ١٩١٨) لشكري محمود نديم .

أيام عبد الحميد ، ويعرفه العراقيون بالنبل والتقوى والشجاعة ، ذلكم هو (محمد فاضل باشا الداغستاني) رحمه الله ، اذ انه أسس مع بعض خيار من أعيان بغداد من آل الخطيب وغيرهم ما سموه بـ (الحزب الاسلامي) سرا ، ونص منهاجهم على مناهضة حكم الاتحاديين ، واعادة الحكم الى سمت اسلامي شرعي واضح على نحو ما كان سابقا [1] .

كانت مبادرتهم هذه سنة ١٩١٣ .

ولذلك أجبرتهم ظروف الحرب العالمية على التريث والالتهاء بصد الخطر العام الذي دهم الأمة ، ثم مات البطل الداغستاني فيما نحسبه شهادة بشظايا طلقة مدفع خلال معركة حصار الكوت ، تلك المعركة الظافرة الرائعة التي انتهت بهزيمة الانكليز أمام بعض بقايا جيش الأمة الاسلامية ، واستسلام أربعة عشر الف جندي انكليزي وأخذهم أسرى ، وكان الداغستاني رحمه الله قائد المتطوعين غير النظاميين في تلك المعركة وما سبقها ودفن جوار قبر الامام أبي حنيفة ببغداد ، ودفنت معه تلك الهمة الكبيرة العالية النبيلة .

• تجدد الذهول

ولكن انتهاء الحرب العالمية ، وتسلط الجاهلية ، تركا عموم المسلمين في ذهول شديد وحيرة .

---

(٣) تجد الاشارة الى خبر هذا الحزب في كتاب (البغداديون اخبارهم ومجالسهم) لابراهيم الدروبي .

كان الوضع الجديد بحاجة الى رجل يبدأ فيعيد من أفراد المسلمين أمة اسلامية ، ويقودها الى حكم الاسلام ثانية ، بأسلوب يناسب الواقع .

لكن الرياح الجاهلية كانت تصفر صفيرا شديدا في ديار الاسلام الخالية وما هناك من يصرخ بالمسلمين مستنهضا ،فيعلو هتافه على صفيرها .

نعم ، كانت هناك أصوات مخلصة كثيرة في بقاع الاسلام ، لكنها ما كانت تعرف طريق العمل الصحيح ، ولا الصفاء الاسلامي الكامل ، وتتوهم الطريق مقالات تكتب أو مؤتمرات تجتمع فتقرر عودة الاسلام على الورق فحسب ، ولذلك بدت صيحاتهم على ورق الصحف أو المنابر أو في المؤتمرات كمجموعة نغمات نشاز أمام نغمة الأوج الهدارة لنشيد الاسلام الجديد الذي كان المسلمون بشوق الى سماعه .

كان الاسلام بحاجة الى من يعرف طريق العودة الصحيح ، ويفقه أصول العمل الجماعي عند السلف ، فيدق صدره ، ويعلي صوته ليسمعه المسلمون ، ويقول : ها أنا ، فيلتفون حوله ، ويميزون صيحته ، ونبرة تكبيره .

● ادراك الذات

« ها أنا » هذه عرف اقبال رحمه الله حاجة الأمة لها .

انها التعبير عن « ادراك الذات » عنده .

وهي في مثل فترة الذهول تلك ، التي كان يعيشها

المسلمون ، تعني ادراك الطريق الصحيح ، الذي يبدأ من تربية الفرد ، على معاني العقيدة الاسلامية الصافية ، ويتطور الى تجمع له قيادة لها خطة .

وقد صور اقبال ادراك الأمة لذاتها الحقيقية الاسلامية من بعد ذهولها كادراك الطفل لذاته من بعد عجزه أيام طفولته الأولى.

ولأن هذه الأمة تولد من دعوة رجل واحد فقيه ذي همة ، كما قال في ديوانه الذي خصصه لبيان الذات : « تولد الأمة من قلب جليل . »[1] ، فقد تحددت صفة الخطوة الأولى في طريق انتشال الأمة من الذهول وارجاعها الى الاسلام .

انها الخطوة الأولى ، عنوانها : ان يبادر قلب جليل فيدق صدره أمام جماهير المسلمين ويقول : هاأنذا ، على صفاء عقائدي ، وتجرد سلوكي تلحظونه ، فتجمعوا حولي .

أو ، بأحرف اقبال في تصوير هذا البشير النذير حين يستفيق من الذهول :

أرأيت الطفـــل يا ذا البصر
ما له عن نفسه من خبر
ليس تدري اذنه ما النغمـــة
لحنـــه ثورتـــه والضجة
وبعـــين الكون انسانـــا يرى
كل شيء ما عداه أبصرا
بعد لأي طـــرف الخيط بـــدا
بعد ما حلت يداه العقـــدا

---

(١) شطر من ديوان الاسرار والرموز / ١٠٨ .

فـــتراه عينـــــه مستعلنـــــا
فيدق الصدر ، يعني : ها أنا
(أنا) هذي بدء مقصود الحياه
نغمة اليقظة في عود الحياه [١]

هذا هو « المجدد » بالاصطلاح الاسلامي ،فالاسلام لا يعرف (أن تكون السلطة بيد الجاهلية ويقف الاسلام منها موقف التابع المتخلف ، ولا كان يكفيه أن يكون هنا وهناك رجال متمسكون بالاسلام في حياتهم الفردية المحدودة ، وتشيع في الحياة الجماعية الواسعة أخلاط شتى من الجاهليـــة والاسلام .

ولذلك كان — ولا يزال — الدين الاسلامي في كل عصر في حاجة الى رجال أقوياء يأتون ويسددون خطى الزمان ويوجهون مسيره الى الاسلام ، سواء أكان عملهم في ذلك محيطا شاملا أو كان على بعض نواحي الأمر مقتصرا ، وهؤلاء هم الذين يدعون بالمجددين) [٢] .

ولأن طريقهم يقتضي البذل ، كان من شروطهم أن يكونوا أبطالا من الشجعان ، اذ أن (الذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى ، ولا يشجعون على مقاومة الأخطار والمشكلات والذين لا يطلبون في هذه الدنيا الا الراحة والسهولة والرغد ، وهم ينسكبون لذلك في كل قالب ويطاوعون لكل

(١) ديوان الاسرار والرموز / ١٣٣ .
(٢) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي / ٢٨ .

ضغط ، لا تجد لهم فعالا يذكر في التاريخ الانساني ، وانما تشكيل التاريخ يكون من شأن الأبطال وحدهم ، وهم الذين قد غيروا أبدا مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم ، وبدلوا أفكار العالم)[1] .

● ها أنا .... يقولها حسن البنا

وكان هذا البطل الشجاع الذي دق صدره وقال : هاأنذا ، هو الامام حسن البنا رحمه الله ، ورفع صوته عاليا معلنا بداية التجمع والمسير سنة ١٩٢٨ ، بعد عشر سنوات كاملات من الذهول الذي أصاب الأمة من جراء نتيجة الحرب العظمى ، وسرعان ما تكاتفت معه تلك الطليعة المؤمنة من عمال شركة قناة السويس فكانت الدعوة الوارثة لجماعات السلف الآمرة بالمعروف .

وكان الأستاذ المودودي يمهد آنذاك ببحوثه القيمة لمثل هذه المسيرة في الهند ، ثم بدأ التجميع فعلا سنة ١٩٣٨ .

وتلقف بعض الميامين هذه الدعوة في بعض البلاد العربية عن الامام البنا ، فكان في كل مكان رائد شجاع تجمعت حوله طليعة ، وبدأو المسير المبارك في السودان ، وسوريا ، وفلسطين ، والعراق والاردن ولبنان

وبذلك رسم هؤلاء القادة ، بريادة الامام البنا ، مع الطلائع المقدامة الذين سارعوا للعمل معهم ، الصورة العملية

(١) نحن والحضارة الغربية للمودودي / ٢٥١ .

لأصول فقه العمل الجماعي الاسلامي في العصر الحديث ، وأتاحوا لبلاغة سيد قطب رحمه الله أن تنطق فتصف الطريق الدائم لمسيرة الدعوات .

يدعونا أن نتذكر (كيف وقع هذا الأمر أول مرة !

لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ويقول لها — كما أمر — : انها في جاهلية ، وان الهدى هدى الله ..

ثم تحول التاريخ ... تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك الرجل الواحد . تحول على النحو الذي يعرفه الأصدقاء والأعداء !

هذه الحقيقة التي استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ما تزال قائمة قيام السنن الكونية الكبرى .. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت الى جاهليتها !

وهذا هو الأمر في اختصار واجمال ..

توجد نقطة البدء ، نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب .. في عدة قلوب .. في قلوب العصبة المؤمنة .. ثم تمضي القافلة في الطريق .. في الطريق الطويل .. الشائك .. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة — فيما عدا بعض الاستثناءات — ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك .. وكما وصلت القافلة الأولى ..

لست أزعم انها مسألة هينة ، ولا انها معركة قصيرة ..ء لكنها مضمونة النتيجة .. كل شيء يؤيدها .. كل شي

حقيقي ، وفطري ، في طبيعة الكون ، وفي طبيعة الانسان .. ويعارضها ركام كثير ، ويقف في طريقها واقع بشري ضخم ، ولكنه غثاء !

ضخم نعم ... ولكنه غثاء !) [1] .

(ان نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الاسلام .. أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق ، فيشهدوا أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله .. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ، ويطبقون هذا في واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الاعلان العام لتحرير الانسان) [2] .

(انه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضي في الطريق) .

(والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مئة ، والمئة يصبحون الفا ، والألف يصبحون اثني عشر الفا) [3] .

فهذا هو أسلوب الطلائع في محاولة البعث الاسلامي لتحقيق المنهج الاسلامي ، فالمنهج (انما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر ، تؤمن به ايمانا كاملا ، وتستقيم عليه — بقدر طاقتها — تجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين ، وفي حياتهم كذلك) [4] .

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب / ١٩١ .
(٢) في ظلال القرآن ١٠ / ١٩١ .
(٣) معالم في الطريق ٩ / ١١٨ .
(٤) هذا الدين لسيد قطب / ٧ .

ولا بد (من البعث الاسلامي مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث ، وبين تسلم القيادة ، فمحاولة البعث الاسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها) [1] .

وهذه الطلائع ، هي الطلائع الموفقة الفائزة التي سيندم من لم يلتحق بها منذ الآن ، وسيتوجع كما توجع الصحابي ذو الجوشن الضبابي رضي الله عنه حين لم يسلم الا بعد فتح مكة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه الى الاسلام بعد بدر فقال لـــه :

(هل لك الى أن تكون من أوائل هذا الأمر ؟

قال : لا

قال : فما يمنعك منه ؟

قال : رأيت قومك كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، فأنظر ، فان ظهرت عليهم آمنت بك واتبعتك ، وان ظهروا عليك لم أتبعك .

. . فكان ذو الجوشن يتوجع على تركه الاسلام حين دعاه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم [2]) .

وكم من أناس اليوم لا يعدو منطقهم منطق ذي الجوشن ؟ يدعوهم واقع المعركة الاسلامية الى أن يكونوا الأوائل والمقدمة ، والنبلاء ، والقادة ، ورأس النفيضة ، فيأبون الا أن يكونوا مؤخرة .

---

(١) معالم في الطريق / ٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ٤٧ .

وكم من اصبع سيعض ندما يوم يختار الله الطلائع السائرة لاتمام نوره ؟

ولا تزال اليوم في العالم الاسلامي بلاد كثيرة فيها عناصر من الأفراد الدعاة جيدة ، وجمعيات اسلامية متعددة ، وتجمعات لدراسة الحديث النبوي الشريف وكلام السلف ، وطرق صوفية وطلاب دراسات شرعية ، وأحزاب اسلامية انتخابية لا تعتمد طريق التربية ، ولكن ليس في أي من هذه الأحزاب والطرق والتجمعات والجمعيات والعناصر التصميم على سلوك طريق الدعوة التي تتجمع على أساس طاعة لأمير ، وتلح في التربية ، وتخطط لتغيير الواقع الذي يضغط عليها واستبدال حكم اسلامي به. فهذه الجماعات مدعوة ، اينما وجدت ، في شمال افريقيا أو شرقها أو غربها ، أو في منطقتنا هذه ، أو في بلاد الأفغان ، أو جنوب شرقي آسيا ، الى أن يراجع أفرادها أنفسهم ، فيصححوا عقائدهم ان كان فيها نوع بدع ، ويعلوا هممهم ان كان يعتريهم نوع خوف ، ويتخلوا عن الأنانية وحب التزعم ان كان قد ولدهما فيهم طول العمل في تجمعات صغيرة ، ثم يبايعوا حرا يتميز بهم في حركة اسلامية واضحة الهدف التغييري ، متينة التوجيه التربوي ، رصينة الصف التنظيمي .

فاذا بادر مقدام فقال : ها أنا ، فان لأفراد هذه الجماعات أسوة وقدوة في الحوار الشريف بين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام حين أمر الله ابراهيم ببناء الكعبة .

قال ابراهيم عليه السلام :

(يا اسماعيل : ان الله أمرني بأمر .
قال : فاصنع ما أمرك ربك .
قال : وتعينني ؟
قال : وأعينك)[1] .
فهذا هو جواب المؤمنين دوما ، بلا تلكؤ ولا تلعثم
وان الله قد أمر باعادة الحكم الاسلامي .
ويجب أن تكون من الأعوان .
لا تتخلف ، وامض ، وبادر ، وكن وريث اسماعيل .
لا تقعد في بيتك .
لا تسمع نداء مستقبلك الوظيفي والتجاري .
فهنا ، في هذه الاجابة الاسماعيلية رأسمالك الحقيقي .
فان استغربت أسلوب الطلائع ، وأبيت الا فتاوى القدماء ،
فاستمع الى الامام ابن تيمية يشرحه لك ويقول :

(كثير من الناس اذا رأى المنكر ، أو تغير كثير من أحوال الاسلام ، جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب وهو منهي عن هذا ، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الاسلام ، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا) . ثم يقول : (وقوله صلى الله عليه وسلم : « ثم يعود غريبا كما بدأ » : اعظم ما تكون غربته اذا ارتد الداخلون فيه عنه ، وقد قال تعالى : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» .

---

(١) صحيح البخاري ٤ / ١٧٥ .

فهؤلاء يقيمونه اذا ارتد عنه أولئك .

وكذلك بدأ غريبا ولم يزل يقوى حتى انتشر ، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمه الله عز وجل كما كان عمر بن عبد العزيز لما ولي قد تغرب كثير من الاسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر ، فأظهر الله به في الاسلام ما كان غريبا [1]) .

● الرواد يصفون الطريق

فان هداك الله ، وكنت في الطلائع ، فاسمع الرواد في العصر الحديث يشرحون لك الطريق .

فأول ما ينبه اليه الامام البنا هو : (وجوب الجد والعمل ، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه ، والتأسيس بعد التدريس) [2] .

ثم شرح ذلك فقال :

(ان كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث :

مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة ، وايصالها الى الجماهير من طبقات الشعب .

ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار واعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين .

ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والانتاج .

وكثيرا ما تسير هذه المراحل الثلاث جنبا الى جنب ، نظرا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨ / ٢٩٧ .

(٢) المؤتمر الخامس / المجموعة / ٢٣٩ .

وحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعا، فالداعي يدعو، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك. ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة، أو النتيجة الكاملة، لا تظهر الا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين) [١].

وأما الأستاذ المودودي فيدعوك الى التأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لترى كيف (قام ذلك الرجل الوحيد فتحدى الدنيا كلها، ورفض كل تلك الأفكار الخاطئة والطرق المعوجة التي كانت رائجة في الدنيا، وعرض بازائها عقيدة من عند الله مخصوصة وطريقة معينة، وفي مدة قليلة من السنين حول مجرى التيار، وغير لون الزمان بقوة تبليغه وجهاده) [٢].

(ان اقامة الامامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الاسلام. فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله إلا بأن يبذل الجهد المستطاع لافراغ حياته في قالب الاسلام.

ثم اذا لم يكن من الممكن تحقق هذا المقصد الأسمى الا بالمساعي الجماعية، لم يكن بد من أن تكون في الأرض جماعة صالحة تؤمن بمبادىء الحق، وتحافظ عليها، ولا تكون لها غاية في الحياة الا اقامة نظام الحق وادارة شؤونه بغاية من الاهتمام والعناية. ولعمر الحق انه ولو لم يكن على وجه الأرض الا رجل واحد مؤمن، لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظـــام

---

(١) المؤتمر الخامس المجموعة/٢٥٤

(٢) نحن والحضارة الغربية / ٢٥٠.

الباطل ، حينما يجد نفسه وحيدا فاقدا للوسائل اللازمة ، أو أن يحاول التستر وراء الحيل الشرعية ، كالاقتناع بأهون البليتين ، بل الحق انه لا يكون أمامه الا طريق واحد ، وهو : أن يدعو الناس كافة الى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى . فان لم يجب لدعوته أحد ، فان قيامه على الصراط المستقيم ، واستمراره في دعوة الناس حتى يلقى ربه خير له الف مرة من أن يتنكب الصراط الحق ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلالة والغواية)[1] .

ولكن هذه الحقائق ذهل عنها الفرديون وظنوا انه طريق خطب ، وصيحات منابر ، وقرارات ومؤتمرات ، وحاول الداعية الاسلامي الكبير شكيب ارسلان رحمه الله تعليمهم الطريق الصحيح فلم يفلح .

يقول رحمه الله في نص ثمين جدا خلال رسالة أنشأها سنة ١٩٣١ ونشرت مجلة (المسلمون) صورتها ، يخاطب أحد أبناء فلسطين :

(تأتيني كتب كثيرة من المغرب وجاوا ومصر وسورية والعراق ونفس فلسطين بلدكم ، مقترحا أصحابها عقد مؤتمر اسلامي أو انتخاب خليفة وما أشبه ذلك . ويكون جوابي دائما : يجب أن نؤسس من تحت . يجب أن نربي الفرد .) .

ثم يتابعفيقول :

(اما ان نعقد مؤتمرا مجموعا من ضعفاء ليس لهم ارادة

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية / ١٨ .

مستقلة وهم لا يقدرون أن ينفذوا قرارا ، فما فائدة ذلك ؟ أتريد أن نجمع اصفارا ؟)[1] .

وهذه كلمات تكشف عن قمة الوعي وعن آخر تجارب الدعاة ، ولكن أصحاب شكيب خذلوه وكانوا أقصر همما .

ولا زلنا ننظر هؤلاء الخطباء المساكين على منابر الجمعة والاحتفالات يتألمون ، وينادون المسلمين بالعمل والجهاد ، ويختمون خطبهم بمثل قولهم : الاسلام يناديكم ولا يسألون أنفسهم : بأي متصد للزعامة نثق ، وما ثم فيهم الا قائد مقود ، ومتبجح مملوك ؟

انهم جهلوا طريق العمل الصحيح ، فلا تؤدي خطبهم الا الى زيادة آلامهم وآلام السامعين ، ولو علموهم اليأس من قادة اليوم ، وأرشدوهم الى وجوب التجمع والأمر بالمعروف الذي جاء به الاسلام ، والنهي عن المنكر الذي تقترفه الأحزاب والزعامات المملوكة ، لحصل لهم المطلوب الذي يتمنونه ، ولكن ما زلنا نسمع نشيج الجمعات وقرارات المؤتمرات منذ عشرات السنين ، وما ثم الا جمع الاصفار .

انه التأسيس من تحت كما يقول شكيب ، ليس غير .

وانها خيمة التنظيم لا قاعات المؤتمرات .

ونار الأحرار ، لا أنوار الثريات .

تنصب خيمتك في صحراء جاهلية القرن العشرين ، وتضرم نارك ليراها التأهون والمنقطعون فيقصدونها وينزلون خيمتك

---

(٦) المسلمون ٢ / ٣٦٣ .

وتنادي ابنتك لبيني لتزيد لهب النار ، وتعلمها :

يا لبيني أوقدي طال المدى
أوقدي علّ على النار هدى
أوقدي يا لبن قد حار الدليل
أوقدي النار لأبناء السبيل
ارفعي النار وأذكي جمرها
علّ هذا الركب يعشو شطرها
شردي هذا الظلام الجاثما
ارشدي هذا الفراش الهائما
حبذا النار بليل توقد
حبذا المؤنس هذا الموقد
حبذا عندك هذا النُزل
لو حوانا في سفار منزل
ما لذا المنزل قد سار الفريق
انما النيران اعلام الطريق
زودينا بهيام ووجيب
زودي يا لبن من هذا اللهيب(١)

(١) لعزام ، من قصيدة اللمعات ، التي الحقها بترجمته لديوان رسالة المشرق لاقبال .

١٠ .... تنسيق وشمول

سمتان ما زال الاسلام يعرف بهما .

سمت الاستعلاء على المبادىء الأخرى ، جازما بضلالها .

وسمت وليد هذا الترفع ، يطبعه بالتبرؤ من الأغيار ، ومفاصلتهم ، وهجر كل صاحب هوى .

وفي هذين السمتين تعبير عن فطرة التغيير التي طبع الله الاسلام عليها ، المتعدية بالتالي الى طبيعة الحركات الاسلامية .

وأمام هذه الفطرة ، غدت مناهج المهادنة ، والمصالحة ، والتعايش بين الاسلام والكفر ، فاشلة .

● اختلاف المنطق ينفي اللقاء

ولذلك ، فان شعراء الدعوة ركزوا على بيان هذه الفطرة التغييرية الاسلامية .

فيؤكد الشاعر الداعية محمود آل جعفر ذلك فيقول :

هذي دعائمنـــا تشع كشمسنا
الله غايتنا ، نقول ونجـــزم
دستورنا القرآن ،لانرضى سوى ال
قرآن تشريعا يسود ويحكم
لم نعرف الاسلام الا دعـــوة
وضاءة تحيي الانـــام وتلهم
لم نعرف الاسلام الا قــــوة
تهوي على الرأس العنيد وتحطم (١)

وكيف لا يكون ذلك واضحا ؟
أندع الأمر لكل ضال ؟
حالة من الواجب أن نرفضها .

فرهط الحكومات قد جانبــوا
هداهم ، وضلوا صراط السدادْ
وقد أركبتهم سياساتهـــــــم
مراكبَ تجري بوحي العنـــادْ
فبعض تظـــاهر في غيّـــــه
وبعض تستر خلف الحيادْ
نسوا واجب الخلق واستكبروا
فعمّ البلاء وطمّ الفســـــادْ
فكيف النجـــاة وكيف الحياة
وكل له في هواه اجتهادْ ؟

---

(١) ديوان حنين الى الفجر / ٧٢ .

وكل يريد استياق القطيـــع
الى مبتغاه ، وبئس المـــرادْ
فهلا ابتدرنـــا الى نجـــدة
وهلا استجبنا لداعي الجهادْ؟
فاما حياة الهدى والابـــاء
واما الشهادة يوم الجِلادْ (١)

ولقد كان العيش المتصالح ممكنا لي أنا الداعية ،

ولكنهـــم ركبوا مَسْلَكـــا
يَحيد عن الجَدَد المشرق
وقد ملك الأمر منهم رجال
يخالف منطقهـــم منطقي
نأوا عن هدى الله في نهجهـــم
وساروا ، وسرت ، فلم نلتق (٢)

فهي مفاصلة حتمية ، لمجرد هذا المنطق المختلف والطريق المتعاكس ، فكيف وقد صار العدوان ؟

• الانسياب الموزون وليد المركز الثابت

وفي هذا ما يوجب على الدعاة الابتدار ، والخروج الى عمل جماعي يعيد من ضل الى الجدد المشرق وصراط السداد .

فيكون التنادي الى التجمع أولا .

---

(١) (٢) الوان طيف للاميري / ٩٤ .

فقد يكون الدعاة دعاة فكرة مجردة ، تراهم كأروع الدعاة فهما للاسلام وعقيدته وأنظمته وقوانينه ، وأكثرهم قراءة للكتب ، ولعلهم من أشد المسلمين حماسة ، وأخشعهم في الصلاة ، ولكنهم ينفرون من التقيد بخطة ونظام ، ما وقر في نفوسهم اعتقدوه ، وما تبين لهم من طرق سلكوها ، فهم قادة نفسهم ، لا يبالون ان وافقت أعمالهم الدعاة الآخرين ، أم خالفوها منفردين .

أولئك أبعد الناس عن الوصول الى ثمرة ايجابية ، وأولئك هم المراوحون .

أما الذين يفتحون للأمة اليوم نافذة تطل بها على نوع أمل ، فانما هم المنسقون .

اذ ما زالت التجارب والتطبيقات تظهر الأهمية العظمى لدور التنظيم في احلال الانسجام والتنسيق بين جهود العاملين ، مع استثمار أدنى درجات امكانية افادة الاسلام لدى الأشخاص استثمارا ايجابيا مباشرا .

وان الخطة البارعة بامكانها أن تجعل التنظيم مركزا تسير في فلكه جهود الأفراد في انسيابية هندسية جميلة ليس فيها اضطراب ، كانسيابية محيط الدائرة الجميل الاستدارة بالنسبة لمركزها .

انمـــا المركز روح الدائـــره
نقطة ، فيها محيط ، ضامره

ومن المركز للقـــوم نظام

ومن المركز للقوم دوام [1]

فليس في الجهود المبذولة ما هو صغير اذا جاء في حينه المناسب ، ومكانه المناسب . وللدعوة متطلبات واحتياجات متكاملة ، بعضها يكمل بعضا ، والجهود المبذولة للوفاء بها متكاملة : صغيرها يكمل ويقوى كبيرها .

وان العمل الذي يديم سير الجماعة الداعية :

(تراه كالدائرة : يصعد بلك محيط ويحبط ، لا من أنه نازل أو عال ، ولكن من أنه ملتف ، مندمج ، موزون ، مقدر) [2] .

فليس ثمة جهد في هذا العمل تظنه في قيمته وأهميته نازلا ، فيسوغ اهماله ، وانما كل الأعمال على بعد واحد من المركز اذا كانت ضمن الخطة موزونة مقدرة .

• تكامل في التطبيق

ثم يكون الشمول ثانيا .

وهو شمول بالسعة التي بلغها الامام البنا رحمه الله في الأصول العشرين . فاسلامنا :

(دولة ووطن ، أو حكومة وأمة . وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة . وهو ثقافة وقانون ، أو علم وقضاء . وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى . وهو جهاد ودعوة ، أو جيش

---

(١) ديوان الاسرار والرموز / ١٢٣ .

(٢) من تشبيهات الرافعي لبعض الأمور خلال وحي القلم ٣ / ٤٢٦ .

وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة)[٢] .

انها سعة في الفهم ، توجب على تجمع العاملين سعة أخرى في الأسلوب والتطبيق .

فليست الدعوة الاسلامية حزبا سياسيا ، وان كانت ساعية الى الحكم ، في انتباه تحذر معه أن تلهيها الأحداث عن خطها التربوي وواجبها العبادي .

ولا هي مجمعا فقهيا محضا ، أو كلية شرعية ، او داراً اللافتاء وان كانت تحرص على الثقافة الشرعية ، والسير على بينة من السنة الغراء ، في بعد عن الجدل في الفروع ، وعن الترف الفكري المثبط لهمتها في التجميع وقيادة العامة .

ولا هي دار نشر ، أو وكالة اعلامية ، وان كانت الصحافة وملاحقة الأحداث وبيان حكم الاسلام فيها من تمام واجباتها.

ولا هي بعد ذلك منظمة فدائية ، أو مؤسسة عسكرية ، أو فرقة كشفية ، وان كان الجهـــاد أصلا من أصولها ، والألعاب الرياضية أسلوبا من أساليبها ، في غير ما تورط في عنف ومجازفة واستعجال .

كما أنها ليست جمعية خيرية ، أو وزارة أوقاف ، وان كانت تأخذ بيد اليتيم والفقير ، وتسعف المريض ، وتساهم في بناء بيوت الله .

نعم ، ليست الدعوة شيئا من ذلك ، ولكنها كل ذلك ، فان

---

(١) رسالة التعاليم / المجموعة / ٧ .

تزاحمت الحاجات ، وقصرت الطاقات : كان تقديم الأهم ، وفق نظرة نسبية ، تبعا لميزان التوفيق بين المصالح والمفاسد المتعارضة ، باهدار كل مصلحة صغيرة يؤدي الحرص عليها الى تفويت مصلحة أكبر منها ، واحتمال اليسير من المفاسد ، لدرء ما هو أعظم .

● قيادة المسلمين أولى من زيادة البر

ويبدو من تجاربنا ، أن الأكثرين ممن نخاطبهم اليوم ، ينقصهم الوعي السياسي ، والمنهج الفقهي ، ولم تتوهج فيهم بعد روح الجهاد .

ولكن الجانب الخيري هو الذي ما زال يحتل شطرا واسعا في تفكيرهم ، وان نقصت الأموال التي بأيديهم – في الحقيقة – عن مجاراة هذه السعة في التفكير ، ولذلك فانهم بحاجة الى مزيد خطاب يفهمهم تكامل الدعوة وامتيازها عن أساليب الجمعيات الخيرية .

ولا شك ان مما يساعد على ترجيح هذا التفكير عندهم : تلك القلوب الرقيقة التي يملكونها، المفعمة بالايمان الفطري ، والتي ما زال يؤجج تركيز الوعظ على معاني البر ومكارم الأخلاق حماستها للمساهمة في كفالة الأيتام ، وبناء المدارس ، و رفع المساجد .

ووالله ما نطق واعظ بغير الحق ، ولا كذبت أحاديث الفضائل ، ولا غفلنا عن أثر ذلك في ترويج الدعوة بالتربية

الميدانية التي تحطم الحواجز ويعامل الدعاة المربون خلالها عموم الناس مباشرة اذ الناس في جوانب حياتهم منغمسون .

ولكن داعية الاسلام قد رصدته صفته لأهم من مجرد ذلك وأجل ، وعليه أن يسد ثغرات ما نرى في الأمة من يسدها الا هو ، ليس أجرها بأقل من أجر أبواب الخير ، ان لم يكن اضعافها .

ان أمام الداعية تنفيذ هذا الواجب التجميعي التربوي الثقافي الاعلامي السياسي الجهادي الخيري ، في شموله الواسع ، وتكامله المترابط .

وهو التميز الثاني ، من بعد التميز الأول عن عامة المسلمين بواسطة الجماعية في العمل .

وهو تميز قديم لا نبتدع القول به ، أمر به امام دعاة زمانه ، أحمد بن حنبل رحمه الله .

وذلك لما سأله تلميذه زهير بن أبي زهير ، فقال :

(ان فلانا ربما سعى في الأمور ، مثل المصانع ، والمساجد ، والآبار ؟

قال : فقال لي أحمد :

لا ، نفسه أولى به .

وكره أن يبذل الرجل نفسه ووجهه) (١) .

فها هنا مسألتان كشف عنهما الامام أحمد :

الأولى : كشفتها ألفاظ هذه الحروف ، وهي أن لا يبذل

---

(١) طبقات الحنابلة لابن ابي يعلى ١ / ١٥٩ .

الداعية وجهه ، بالتعرض الى جمع المال من الأغنياء ، ولو لمصلحة عامة ، فقد يحبس هذا النشاط لسان الداعية عن قول الحق .. أمرا أو نهيا .

والثانية : يكشفها مجمل قصده من حفظ الوجه ، وهو التفرغ ، بهيبة كافية ، لقيادة جمهور المسلمين ، ومصاولة الابتداع وأعداء الاسلام ، والأمر بالمعروف ، ونشر العلم ، مما تفصح سيرته هو عن مثل ذلك .

وهذا الافتاء قريب مما ذكره فقهاء الأحكام السلطانية ، حين أوجبوا على الخليفة أن لا يتشاغل عن سياسة الدولة وتدبير الجيوش بالعبادة وأعمال البر الشخصية ، كما قال الماوردي ، حين جعل من واجبات الخليفة :

(أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمة ، وحراسة الملة ، ولا يعوّل على التفويض ، تشاغلا بلذة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ، ويغش الناصح ، وقد قال الله تعالى : « يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ، ولا عذره في الاتباع حتّى وصفه بالضلال .

وهذا وان كان مستحقا عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة ، فهو من حقوق السياسة لكل مسترع .

قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »)[1] .

وانها لرعاية حقا ، ومسؤولية صدقا .

معهما يلمس المرء تماما البعد الشاسع بين جهدين :

جهد السعي المجرد في مصالح الناس ، مهما أتعب البدن .

وجهد مواكبة الدعوة في شمولها ، مواكبة تستهلك البدن ، وترهق الفكر ، وتمتص رحيق الروح .

ولذلك كانت حالة الشمول سموا ، لا يقوى عليها الا أشداء المؤمنين .

(١) الأحكام السلطانية للماوردي / ١٦ الطبعة الثانية .

١١ .... رايــة الخيـر

وبعد :

« فقد افتضحت الجاهلية ، وبدت سوأتها للناس ، واشتد تذمر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية الى قيادة الاسلام » (١) .

بهذه البساطة عبر سيد قطب رحمه الله عما يرى .

انه يتحدث عن أمر عظيم جليل ، وانتقال ضخم ، لكنه من أمر الحقائق .

ولهذا حفته البساطة ، وكذلك شأن الحقائق دوما .

فحينما يكون الأمر حقيقة لا يحتاج الى كثير بلاغة ، ولا الى اطناب ، أو بهرج وتزويق .

انها الحقيقة التي يعيشها الغرب ، فهذا الخواء الروحي ، والانحدار الجنسي ، والتمييز العنصري ، والظلم الاستعماري ،

---

(١) مقدمة سيد قطب لكتاب الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / ٢٠ .

لم يعد افلاسا مجردا ، بل فضيحة كبيرة للحضارة الغربية .

وهي الحقيقة التي ترهق المجتمعات الشيوعية ، ولو لم يكن فيها الا الارهاب وكبت الحريات لكفتها فضيحة .

كما انها الحقيقة التي تشير الى عدل الاسلام ، وسماحته ، وسكينته التي يهديها الى القلوب التي أتعبها قلق المادة .

ان تأملا قصيرا يرينا بوضوح أن شعوب الأمة الاسلامية قد ملت وسئمت ما اقتبسوه لها من مادية الغرب ونظمه ، وما فطنوا له فقلدوه من أساليب الارهاب والتجويع الشيوعي ، وأصبحت القلوب والعقول على أتم الاستعداد لمسيرة اياب الى الاسلام ثانية .

ولكن بينها وبين الوصول الى دار السلام مفازة .

ولا بد للمفازة من دليل .

وشرط الدليل أن يكون خبيرا خِرّيتا مميزا للأثر ، متفرسا ، ناظرا في أبراج السماء .

فان وجد الدليل فان الوصول قريب .

● جاذبية الدعاة

وخير ما يكون الدليل اذا كان حاديا يجيد الترنم .

انه يطرب الذين وراءه ، فيتبعونه .

وهذا هو ما تصوره بلاغتنا القاصرة ، لأن من يتبع طربا قد تعتريه غفلة ، أو تفجؤه عثرة ، أو تغلبه اغفاءة ، فتيوقف .

أما بلاغة اقبال فأتم وأكمل وأبدع .

انه يجد في ادراك الذات قوة جذب تجبر الآخرين على الارتباط بها ، فاذا جمع المسلم الحر الفطن ذاته فكان داعية فانه يدير من يريد في فلكه .

يقول اقبال :

شدّت الأرض قواها ، فالقمر

في طواف حولها ، لامستقر [1]

فلأن الأرض تحفزت ، وخزنت من قوة الجذب ما استطاعت : أجبرت القمر على الارتباط بها ، والدوران حولها ، حتى بات لا يحدث نفسه بفرار .

فكذلك التفاف الناس حول دعوة الاسلام يكون حتميا اذا شد الدعاة قواهم ، حتى يعتاد الناس الدوران في فلكهم ، ويجدوا في ارتباطهم بالدعوة نوع اضطرار .

فأنتم أيها الدعاة من يتحكم في الأمر .

لانماء لأحزاب الضلال ان شددتم قواكم .

ولا مناص للناس آنذاك ، انما هم أسراكم .

وانما شد القوة في الاجتماع .

ونتيجة الاجتماع أن يكون الصف .

ومن أتى صفا غلب ، الا أن يشاء الله غير ذلك .

(ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)

وتنادى السحرة الذين عارضوا موسى قبل ايمانهم ، فقالوا : « فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا » ، كما أخبر الله تعالى .

---

(٢) ديوان الاسرار والرموز / ١٥ .

وبذلك عبروا عن التجمع المنظم للجاهلية في كل عصورها من خلال هذا الشعار الذي يعطي درسا بليغا لمن يحزن على مصير المسلمين وليس لديه الا التأوه .

ان الجاهلية المنظمة لا يغلبها الا اسلام منظم .

ولا ينتصر دعاة الاسلام اليوم الا اذا جمعوا خيرهم ثم أتوا صفا واحدا متراصا مقتحما .

● ارفع للخير راية

ولكن كيف يتم التجمع بلا مبادأة من صاحب خير ؟

انها المبادأة اللازمة ، تارة تكون تكبيرا ينبه ، وتارة تكون نارا تلفت ، وتارة تكون راية يبصرها أهل الخير فيتجمعون حولها ، ولا ينقص المسلمين اليوم في كثير من البلاد الا هذه الراية ، فانهم كثير عددهم ، غزير علمهم ، جميل ذكرهم ، انما أضعفهم التشتت والضياع .

وقد زار عبد الوهاب عزام رحمه الله معظم بلاد الاسلام ، وساح في بلاد العرب وتركيا والهند ، ودرس واقع المسلمين عن قرب ، فما خرج بغير هذه النتيجة ، فعاد ينادي الخيّرين أن :

(لا يخدعنكم الفساد الظاهر والشر المستشري ، ولا يهولنكم ذكر فلان وفلان من المفسدين ، ففي الأمة أخيار أكثر ممن تعدون من الأشرار ، ولكنها راية رفعت للشر فأوى اليها أشرارها ، وهرع نحوَها أنصارها ، ونفر منها الأخيار فلم ينحازوا اليها ، ولم تسمع أصواتهم حولها ، ولو رفعت للخير

راية لانحاز اليها الأخيار وحفوا بها وسكنت أمة الأشرار وقل جمعهم وخفت ذكرهم .

ان في الأمم خيرا وشراً ، وفسادا وصلاحا ومصلحين ومفسدين ، فان رفعت راية للخير انضوى اليها الأخيار في كل طائفة ، وغلب بها الخير في الأنفس التي يغلب شرها خيرها ، ونبت خير في نفوس لا خير فيها ، فان الانسان لا يخلو — وان عظم شره واستشرى داؤه — من نزعة للحق كامنة ، وعاطفة للخير مستسرة)[1] .

وهذ الكلام من الحق والصواب الظاهر .

وكثير من أهل الخير انما وقعوا في الوهم من هاهنا . رأوا ضخامة الفساد في بلادهم ، وتغير الموازين والمقاييس ، وتسلط الأشرار ، فظنوا ان الأمر قد فلت ، واستحكم الكفر ، واختاروا اما السكوت واما الهجرة الى بلد أخف شرا يتعطلون فيــه .

● الهجرة المفضولة

وقبل ، حين استحكم أمر الجهمية والمعتزلة ، والشعوبية أيام المأمون والمعتصم والواثق ، ووُسّدت الأمور الى غير أهلها ، تألم القائد العربي الغيور أبو دلف القاسم العجلي ، وكان من كبار أهل الخير ، صحيح العقيدة ، ظاهر النبل ، مناهضا للشعوبية التي يرعاها بعض القادة ، فاندفع يقول :

(١) الشوارد لعبد الوهاب عزام / ١٧٣ .

ومقام الكريم في بلـــد الهـــو
ن اذا أمكن الرحيل محـــال
حيث لا رافعا لسيف من الضـــ
يم ولا للكماة فيه مجـــــال
في بلاد يذل فيها عزيز الــــ
قوم حتى يناله الأنذال (١)

ثم هاجر الى معسكره بمدينة الكرخ التي تقع أطلالها اليوم على الطريق الذاهب من العراق الى خراسان ، قبيل كرمانشاه ، وهي غير الكرخ المعروفة ببغداد .

كان حرا ، لكنه كان فردا ، ولذلك لم يأب الهجرة . أما الامام أحمد بن حنبل ، فكان في تلك الأزمة حرا داعية ، ولذلك أبى الهجرة وأقام ببغداد ، ورفع الراية ، فكان الثبات والتثبيت ، فهزم جمع البدعة .

وهكذا شأن الحر الداعية دوما . يصبر على العيش والمقام في بلده ، ليلتقط من مجتمع مستخذ فتيانا صباح الوجوه ، لم يصب قلوبهم وأبدانهم شيء من دنس الجاهلية وأمراضها وحرامها ، ويربيهم ويغرز فيهم عزة الاسلام ، ويجعلهم صفوفا .

نعم ، في المجتمع المستخذي الذي طال خضوعه للطغيان ، تجد (النفس تميل الى الاسفاف ، وتخلد الى الراحة ، وتهوى الهين من كل أمر .

ولكن في النفس — على هذا — نزوعا الى العلاء ، وشغفا

---

(١) كتاب (بغداد) لابن طيفور / ١٣٣ .

بالارتقاء ، وحنيننا الى المكارم ، وشوقا الى العظائم .

ان فيها لجمرة يغطيها الرماد ، وشرارة يقدحها الزناد ، فان وجدت نافخا في جمرها وقادحا لشرارها ، استيقظت ، وتحفزت ، وعملت ، وصعدت . وكلما ذاقت لذة العمل والرقي زادت حبا له ، وهياما به) [1] .

ولهذا فان المهاجر مخطىء ، الا هجرة صاحب سر يخشى عليه ، أو هجرة صاحب فقه الى من يحتاج اليه ، أو هجرة من يخشى الفتنة في دينه .

أما السكوت فأبعد عن الصواب ، (والذين يبصرون بالظلم في كل طريق ، ويلتقون بالبغي في كل ثنية ، لا يحركون يدا ولا لسانا ، وهم قادرون على تحريك اليد واللسان أولئك لم يعمر الاسلام قلوبهم فلو عمرها لانقلبوا مجاهدين) [2] .

ومن هاهنا لا يكون المؤمن العامر القلب الا متحركا محركا ، أما المتباطىء الذي يعد بالالتحاق بعدما تظهر بوادر النجاح فانما يعد وعد الضعاف .

صاح ما الحر من يثور على الظلـ
م وقد ثارت لحقها الأقـوام
انمـا الحر من يسير الى الظلـ
م فيصميه والأنام نيـام [3]

---

(١) الشوارد لعزام / ٣٥٣ .
(٢) دراسات اسلامية لسيد قطب / ٢٩ .
(٣) ديوان المثاني لعزام / ٨٠ .

وكان أعياء الفقهاء القدماء يميزون مثل هذه المعاني أكثر من المتأخرين ، وأرجعوا العز الذي عرفه صدر الاسلام الى وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمن ثم قالوا أنه (هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوي بساطه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك الا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، اذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه)[1] .

قال ذلك الغزالي رحمه الله .

فللذي رآه ، فتش عن المخرج والمستدرك فلم يجد الا أسلوب الطلائع ، وراح يحلي الأجر لمن يكون طليعة ، ويحكر له درجات القرب ، ويرفع الأبصار الى ذراها ، ويصيح ان أيها الناس .

(من سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، اما متكفلا بعملها ، أو متقلدا لتنفيذها ، مجددا لهذه السنة الدائرة ، ناهضا بأعبائها ، ومتشمرا في أحيائها : كان مستأثرا من بين الخلق باحياء سنة أفضى الزمان الى اماتتها ، ومستبدا بقربة

(١) احياء علوم الدين ٢ / ٣٠٦ .

تتضاءل درجات القرب دون ذروتها)[1] .

وأما الذي قررناه من أمر الهجرة فقد سبق اليه الصحابة رضي الله عنهم . قال ابن تيمية :

(قال أبو هريرة : لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب الي من ان أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود. ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل انسان أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ، ولا تتعين أرض يكون مقام الانسان فيها أفضل ، وانما يكون الأفضل في حق كل انسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور ، وقد كتب أبو الدرداء الى سلمان : هلم الى الأرض المقدسة ! فكتب اليه سلمان :

ان الأرض لا تقدس أحدا ، وانما يقدس العبد عمله . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بين سلمان وأبي الدرداء ، وكان سلمان افقه من أبي الدرداء في أشياء من جملتها هذا[2]) .

فالعمل هو الذي يقدس صاحبه ، وأفضل العمل : أمر بمعروف ونهي عن منكر ، وأفضل الأمر والنهي : ما كان في بلد يحتاج اليه ويثمر فيه ، فلا تخدع نفسك بزهد مجرد يقودك الى الهجرة عن موطن النفع بل اصغ لابن القيم يشرح لك أمرك حين يقول :

(ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ، بل بالقيام مع

---

(١) احياء علوم الدين ٢ / ٣٠٦ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨ / ٢٨٣ .

ذلك بالأوامر المحبوبة لله . وأكثر الديّانين لا يعبأون منها الا بما شاركهم فيه عموم الناس ، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصيحة لله ورسوله وعباده ، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه ، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها ، وفضلا عن أن يفعلوها . وأقل الناس دينا ، وأمقتهم الى الله : من ترك هذه الواجبات ، وان زهد في الدنيا جميعها ، وقل أن ترى منهم من يحمرّ وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ، ويبذل عرضه في نصرة دينه)[1] .

والنبي صلى الله عليه وسلم (كانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا ، وأعظمهم عند الله قدرا)[2] .

ولك فيه صلى الله عليه وسلم أسوة وقدوة .

---

(١) عدة الصابرين / ١٢١ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٣٨ .

١٢ .... معادلة يفهمها الرّجال

من ظواهر تاريخ الدعاة انك تجد جمهرتهم العظمى قد عملت وبذلت للدعوة الاسلامية الشيء الكثير بصمت وسكون ، وشغلهم الانغماس في العمل اليومي التربوي والتجميعي عن تدوين كثير مما تكشف لهم من فقه الدعوة الذوقي والتجريبي ، وقليل هم اولئك الذين حبوا الدعاة بتدوين وشروح .

لكنك أيضا ، بازاء هذه الظاهرة ، تجد أن الله سبحانه يلهمهم بلاغة وفصاحة غير اعتيادية ، يتاح لهم بها أن يوجزوا ويجمعوا مذهبهم في الدعوة في بضع كلمات قليلات تكون لأجيال الدعاة الآتية من بعدهم اصلا فقهيا مهما ، ومعلما بارزا من معالم الطريق ، ويكون قائلها ، استاذا في الدعوة .

قد لا تتعدى كلماتهم الأسطر ، لكنها تكتسب أهميتها من كونها تقيم علاقة وارتباطا بين جزيئات اسلامية على وجه

يضخم حجم هذه الجزيئات تضخما تغدو به عظيمة الأثر .

مثلها في ذلك مثل الأعداد المجردة ، ليست تحمل من القيمة المجردة الا قليلا ، ثم أتى علماء الرياضيات وتمكنوا من اقامة أشكال من العلاقات المختلفة بين هذه الأعداد في معادلات رياضية كشفت لهم أسرار الطاقات واستخدامها ، حتى ان اينشتين قد كشف على الورق المجرد ، بالقلم المجرد ، في أرقام مجردة ، سر الطاقة الذرية ، وكيفية اخراجها من مكمنها الى مجالات الاستخدام .

وكذلك هؤلاء الدعاة ، اقاموا أشكالا من العلاقات بين الآداب والأوامر الاسلامية كشفت عن درب واسع لمن يريد أن يسير ، وحددت العوامل الحاسمة ونقاط التأثير ، ودللت على ما منحهم الله تعالى من عميق الوعي ، وما اكتسبوه من طويل التجربة .

ولكن كما ان معادلات الأرقام لا يفهمها الا رياضي تأمل وحلل ، فان معادلات الدعوة لا يفهمها ، ولا يدرك قيمتها الا داعية ذاق وتحمل ، ويظل بمنأى عنها وعن فقهها من قبع وتعلل .

● انكار المنكر دليل الفراسة

من هؤلاء الدعاة لبيب من الفحول ، تدل المعادلة التي وضعها على كمال عقله ونفاذ بصره ، لكنه مغمور مجهول ،

اسمه ابو بكر بن يزدانيار ، رحمه الله .

سئل عن الفراسة الايمانية ما هي ؟ فقال :

(نظر الصالح ، بالصلاح الذي فيه نور التقى والايمان والحقائق والصدق ، بالزهد في الدنيا ، والرغبة في العقبى ، فينكر على أهل المنكر منكرهم) .

فانظر المعنى الكبير في هذا المتن الصغير .

فهو قد جعل الفراسة شدة يقين الداعي الى الله بثوابه يوم القيامة ، ومعرفته تفاهة هذه اللذات الدنيوية المحدودة المقطوعة الممنوعة ، فيحمل نفسه على تغيير المنكر ومنازعة أهل المنكر بشجاعة يمدها اياه هذا اليقين .

ووالله انها لفراسة عالية تصغر عندها كل فراسة اخرى مهما كانت صادقة .

وانظر العناصر الأربعة التي تجتمع فتكون الصلاح الذي يدفع بصاحبه الى صيحة الحق .

تقوى ، تلبي الأمر ، وتقف عند الشبهة .

وايمان ، يرى به من اليقين الأخروي ما يحجب عن أموات القلوب .

وحقائق ، يعيش معها صاحبها حياة الواقع ، لا أوهام الدنيا القصيرة الزائلة .

وصدق القلب في ظنه ، واللسان في نطقه .

وانظر دقة اتجاه انكاره وشموله .

انه لا ينكر المنكر فحسب ، بل ينكر على أهل المنكر منكرهم .

أي انه لا يعرف التعميم ، ولا التورية .

انه يمد اصبعه يشير الى الطاغوت بالاتهام ، ويرفع صوته يعلن فضيحة الكفر الذي أمامه ، باسمه ، ورقمه ، وعنوانه ، ثم لا يلبث الاصبع الواحد حتى تنفتح معه بقيةالخمس ، فتكون يد التغيير من بعد اصبع الاتهام .

ثم انظر الربط الرائع بين المقدمات الست في طرف المعادلة الأول ، وبين التخصيص في الطرف الثاني ، ينكشف لك طريق استخدام الطاقة الاسلامية في الحياة البشرية واسالتها من ينبوعها لتروي ظمأ المتعطشين .

انها طاقة كالطاقات .

انها مثل الضوء ، والحرارة ، والكهرباء وكما خلق الله سبحانه وتعالى هذه الطاقات في الكون ، وأتاح من علماء الرياضيات والفيزياء من يكشف أسرارها ويذللها لخدمة الانسان ، فانه سبحانه أنزل أيضا هذا القرآن ، وجعله من مكملات سنن الكون ، وأتاح من الدعاة من يكشف أسراره .

وكما يعهد الرياضي الى المختبرات والمصانع أن تترجم

معادلاته وتصميماته إلى أجهزة توضع في الاستخدام ، فان فقهاء الدعوة ، من مثل أبي بكر بن يردانيار هذا ، يعهدون إلى الحركات المنظمة ان تترجم معادلاتهم إلى عمليات تصحيحية لتخبطات الانسان .

ومن هنا تنكشف أهمية البحوث في فقه الدعوة ، ومـــا ينبني عليها من تخطيط حركي .

ان دورفقه الدعوة دوماً أن يضع الوصف الصحيح ، باللفظ الصريح ، للعمل الفصيح .

• روعة الفقه الحركي تكمن في الأمانة والاجتهاد

ومثلما لا يليق بعلماء الذرة الآن أن يتطاولوا على ارخميدس وفيثاغورس وغيرهم من قدماء علماء اليونان ، لما نجده من تقارب قوة وأهمية معادلات أولئك ومعادلات هؤلاء في دفع عجلة العلم ، وان كلاً من الجمهرتين أتت رائعا بديعا في عصرها ، فانه لا يليق أيضاً بالمتأخر ممن يفتش للدعوة الاسلامية عن معادلاتها الجديدة أن يتطاول على من سلف من فقهاء الأمة وقادة الدعوة ، ولا أن يتنكر لهم ، ولا أن يدلس على من يخاطبهم ، بل يجب عليه أن يكون وفيا أمينا ، فيذكر نص حروفهم حيث أغنت وكفت للتعبير عما يريد ، ويكون له دور الاحياء والربط والتحليل وابراز المهم وشرحه وبيان حصول الاجماع فيما أجمعوا عليه . والأسطر الخفية المنسية ان أرجعها

الباحث الى ميدان التداول ، وأوقع الأبصار عليها ، وفتح أبواب القلوب اليها ، فكأنما أحيـــاها من بعد موت ، واصطادها من بعد فوت .

وواجب المتفقه أن ينتبه لمثل هذا السمت الواجب لبحوث الدعوة ، فلا يضيق صدرا بالنقول ، بطرا وترفا ، ولا يسأم تكرر المراجع ، فان الفقه منحة الوهاب ، حبا به قومـــا قليلين .

وأثناء ذلك ، لا تخف الاجتهاد والرأي الجديد ، فان فقه الدعوة لا ينمو ان حرصت على التعميم الذي يبقيك في دائرة ما لا خلاف فيه ، ولكن تصلب في منهج البحث لا تتسامح فيه ، واحرص على الأصول لا تدع مستعجل السير أوهياب الصراع أن يتلاعب فيها ، فيخرج الى نوع تهور أو تخذيل ، ولا من استفزه الرعاع أن يسارع الى تكفير .

ويعجبني جدا في هذا المجال استعراض داعية في مجلة (المجتمع) لدور سيد قطب في توضيح وتحديد المنهج التربوي الحركي ، ودور عبد القادر عودة في تحديد المنهج التشريعي ، من بعد اليقظة التي أوجدها الامام البنا في تعميماته ومهد لهما بها ، والتثبيت الذي قام به الهضيبي بصلابته في موقفه ، ثم استعراضه لما يصاحب كل توضيح وتحديد وتفصيل مـــن اختلاف اجتهادي بدافع الحرص والاخلاص والاستجابة للواقع المتغير ، ودور الاجماع دائما في حل الخلاف . وختم كلامه بأن تساءل : (ترى ، أتعود الحركة الى التبسيط والتعميم خروجا

من المتاعب وأمانة من المخاوف ، أم تمضي شوطا أبعد في التفصيل وتتحمل ضريبة هذا التقدم والانتشار ؟؟)[(١)] ، وهو تساؤل يكمن خلفه وعي صحيح لدور بحوث فقه الدعوة في تقدم الدعوة حتى وان ردت بعض اجتهادات الباحثين من بعد .

فان لم تقدم هذه البحوث اجتهادا جديدا فانها لا تخلو من تعبير يزيد الوضوح ، أو اصطلاح يخصص الدلالة ، أو فتوى فقيه قديم مهاب يبين أصل ما نظنه جديدا ، أو — على الأقل — تقريب اجتهاد الآخرين ، بالاقرار والموافقة ، من تناوش الاجماع .

وحين تصدأ القلوب ، وتتعكر النفوس ، وتبرد الهمم ، يكون ما تحمله هذه البحوث في ثناياها من قصص الحماس ، ومجاز الخطاب ، ومنظوم الألفاظ ، نعم العلاج اللطيف ، فيه التجلية ، والترقيق ، والتصفية ، والاشعال .

● نبدأ بالمنكر الأكبر

وهو المنكر الأكبر يعنونه في كلامهم .

منكر الحكم بغير الاسلام .

(ان الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر ، وهو تقرير الوهية الله وحده سبحانه ، وتحقيق قيام المجتمع المسلم .

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ١١٥ ص ١١ .

والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهي عن المنكر الأكبر ، وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله . والذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم هاجروا وجاهدوا ابتداء لاقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله ، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة . فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي ، ولم ينفقوا قط جهدهم ، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل ! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع ، فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر ، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم .) (١)

لايعني ذلك ان يمتنع الدعاة عن تعليم انفسهم وتعليم من معهم اداب الإسلام وأحكام العبادات ، ولا النهي عن منكر فرعي يمكن ازالته بهذا النهي ، لكنها دعوة واضحة لعدم خداع النفس وتلهيتها بالاكتفاء بالنهي عن المنكرات الصغيرة والعزوف عن منكر الحكم بغير الاسلام ، والقناعة برتبة الوعظ في مباحث ازالة النجاسة وسجود السهو دون الجهر بالحق ، والاشارة إلى الطاغوت ، وتجميع المسلمين ، وتربيتهم ، وتنسيق جهودهم وتوجيهها للنهضة الشاملة .

---

(١) في ظلال القرآن ١١ / ٥٠ .

لقد أرسل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ليحرر الناس (ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم) ، وانها أغلال أي أغلال ، ثم أعاد اليهود هذه الانسانية إلى عذابها وأغلالها مرة أخرى بهذه الأحزاب التي زرعوها في كل مكان ولا بد أن تقوم نهضة إسلامية لتضع هذه الأغلال عن المغلولين وترفع هذا الحرج والضيق الذي يرهق أبناء المسلمين .

(انه الأمر الهائل العظيم . أمر رقاب الناس . أمر حياتهم ومماتهم . أمر سعادتهم وشقائهم . أمر ثوابهم وعقابهم . أمر هذه البشرية ، التي اما أن تبلغ اليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والاخرة ، وأما الا تبلغ اليها فتكون لها حجة على ربها ، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ .

فأما رسل الله عليهم الصلاة والسلام فقد أدوا الامانة وبلغوا الرسالة ، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل . وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها – مع هذا – قدوة ممثلة في العمل ، وجهاداً مضيناً بالليل والنهار لازالة العقبات والعوائق ، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك ، وضلالات تزين ، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

وبقي الواجب الثقيل على من بعده ، على المؤمنين برسالته ،

فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده – صلى الله عليه وسلم – وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه ، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة – تبعة اقامة حجة الله على الناس ، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الاخرة وشقوه الدنيا – إلا بالتبليغ والأداء ، على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدى . فالرسالة هي الرسالة ، والناس هم النـــاس ، وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات ، وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة ، وتفتنهم كذلك عـــن دينهم بالتضليل وبالقوة . .

الموقف هو الموقف ، والعقبات هي العقبات ، والناس هم الناس ، ولابد من بلاغ ، ولا بد من أداء . بلاغ بالبيان ، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون .

إنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله ، والا فهي التبعة الثقيلة ، تبعة ضلال البشرية كلها ، وشقوتها في هذه الدنيا ، وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة ، وحمل التبعة في هذا كله ، وعدم النجاة من النار .

فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة ؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل ؟)[1] .

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣١ .

• هو شأن الرجال . . !

فكذلك هو الأمر الواقع .

الاسلام هو الاسلام ، لا زال مستعدا أن ينهي شقاء البشر ، ولكن تبليغ هذا الاسلام والقيام به ، هو الذي ضعف ولذلك (كان بعض السلف الصالح يقول : يا له من دين لو أن له رجالا)[1] .

الرجال الذين هم بمستوى هذا الاسلام في شموله .

وهذا الواحد المتأسف انما كان في عصر السلف ، أي أنه كان يرى أمامه جحافل فقهاء الفروع ، وجحافل الزهاد، لكنهم لم يكونوا ليملأوا نظره .

كان يريد آخرين ، الفقه والزهد من صفاتهم ، لكن يذهبون الى مرحلة أبعد . يريدهم دعاة ، همهم هداية الخلق ، وإنفاذ حكم الله ، والانكار على من يحكم الناس بهواه . وهي مرحلة لا يبلغها الا من أوتي من أخلاق الرجولة مقدارا ، ويأنف من كان رجلا أن يقف دونها ، مهادنا ومصالحا ، أو مكتفيا بالتوريات . ولذلك لما قيل لأحد فحول الرجال : (لنا حويجة) ، تصغير حاجة ، أي جئناك تقضيها لنا ، أبى وقال : (أطلبوا لها رجيلا)[2] .

فالرجيل تشبع نفسه بعمل اليسير .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١ / ٣٠٢ .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي / ٢٥١ طبعة الغزالي .

أما هو فهمته عالية ، فقد رصد نفسه لضخام الأعمال ، ويأنف من صغارها .

وأن هذه الدعوة والله هي شأن الرجال حقا ، الذين يضم سِربهم كل مقدام .

أما أهل الحذر والهلع من الصدام وعقباته ، فليس فيهم الا رويجل .

فعند الرجال ، لا يكون الخوف الا من الغفلة ، كما قال العمري الزاهد : (ان من غفلتك عن نفسك ، واعراضك عن الله ، أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ، ولا تأمر فيه ولا تنهى عنه ، خوفا ممن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا) [1] .

فمن ثم كان ابن تيمية يكثر تقريع الخائفين من الصالحين ، وبين مرارا أن (هؤلاء وان كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في ازالتها ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

فتدبر هذا ، فانه كثيرا ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران : بغض الكفر وأهله ، وبغض الفجور وأهله ، وبغض نهيهم وجهادهم . كما يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس والمال ، وقد قال تعالى : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . » ، وقال تعالى : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم / ٤٤ .

وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين »[1] .

وربما تظن أنك بحاجة الى مزيد نقاش مع مثل هؤلاء المفرطين ، لكن يوسف القرضاوي قد سبق وجادل ، وحجّ وفند ، ببلاغة وجمال لفظ ، فكفاك .....

قالوا : السعادة في السكـــون
وفي الخمول وفي الخمـــود
في العيش بين الأهـــل لا
عيش المهاجر والطريـــــد
في المشي خلف الركب في
دعة وفي خطــــو وئيد
في أن تقول كمـــا يقــال
فلا اعتراض ولا ردود
في أن تسير مـــع القطيـــع
وأن تقـــاد ولا تقـود
في أن تصيـــــح لكل وال :
عاش عهدكــــم المجيد
قلت : الحيـــاة هي التحـرك
لا السكون ولا الهمـــود

(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥ / ٣٤٠ .

وهي الجهاد ، وهل يجـــا
هد من تعلق بالقعــود ؟
وهي التلـــذذ بالمتـــاعب
لا التلـــذذ بالرقـــود
هي أن تذود عن الحيـــاض
وأي حـــر لا يـــذود ؟
هي أن تحس بـــأن كأس
الذل مـــن مـــاء صديد
هـــي أن تعيش خليفـــة
في الأرض شأنك أن تسود
وتقول : لا ، ونعم ، اذا مـــا
شئت في بصر حديـــد [1]

(١) ليوسف القرضاوي ، من قصائده القديمة ، وهذه الأبيات من قصيدة طويلة اعادت مجلة التربية الاسلامية ببغداد نشرها في مجلدها السادس / ٢٧٨ .

١٣ .... الميـــثاق

كل سطر الى زوال ، الا هذا القرآن ، فانه خالد .

وكل نتاج عقول البشر في تغير وتبدل دائمين ، وتعتريه الرجرجة ، الا ّ نِتاج عقل يقتبس من مشكاة هذا القرآن ، فانه يقتبس أيضا شيئا من ذلك الخلود ، ويكون فيه الاستقرار الثبات .

فمن ثم تجد وحدة الفهم ، ووحدة الوصف والتشخيص والمعالجة تجمع من تكلم في الاسلام ونقد المجتمع ، ابتداء بمن رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء بمن آمن به ولم يره في هذا القرن ، بل حتى انك لتجد في كلامهم بوضوح وحدة الأسلوب البلاغي ، ووحدة الاصطلاح .

ان هذا الحفاظ والثبات وان رآه الواهمون جمودا ، ووقوفا ، الا أنه في الحقيقة هو الابداع كله .

فحين يضع الفيلسوف نظرية أو حلولا لمشكلة انسانية ،

يكون حماسه والحماس الذي يتمكن أن يبعثه في تلامذته بسحر بيانه من عوامل تغطية ما يعتور حلوله من العيب ، وينسيهم الارهاق الذي ترهقهم به مثالياته ، ثم يفضح طول التطبيق نظرياته ، فينتدب مغرور آخر نفسه ليغير الأوصاف والحلول ، ويأتي بنظريات جديدة ، ويظن هو ومن معه أن ذلك هو الابداع ودليل الحيوية .

لكن حلول الاسلام ، لأنها تنطلق من حقائق الفطرة ، ومنزلة ممن خلق الفطرة ، لا يزيدها طول التطبيق وتبدل المجتمعات الا رسوخا ، ويبرز في كل جيل مثل تطبيقي يشير للناس الى مصداقها ، وهذا هو عنصر الابداع ، فان ثبات الاسلام ، وتقلب غيره في التخبط والتبدل ابداع في الاسلام واعجاز .

ولهذا ، فان عرض الأقوال المتشابهة التي فاه بها السلف والخلف من فقهاء الأمة وان كان يكرر المعنى والمبنى ، فانه من جانب آخر ينبه على وحدة المنهج والفهم والاداء ، وابراز الوحدة بحد ذاته عنصر يجب على بحوث فقه الدعوة أن تحرص عليه ، لما يتضمنه من الاشارة الى اصالة الخلف وعراقة مذهبه .

● صراحة الاسلام لا استفزاز الظروف

فانظر من قول السلف الأول القديم مثالاً .

قالوا : (سئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء ،

فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه)[1] .

وانظر معه تعابير سيد قطب في وصف من لا ينكر .

هل تستطيع بعد النظر أن تقر من يطيل لسانه على حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ويتهمه بأن كلماته وليدة استفزازات الظروف الصعبة التي كان يعيشها ؟

انه يصف غافل القلب الأخرس بالموت .

فان تنبه قلبه وظل صامتا ، فان حاله عند حذيفة يقتضي أن نصفه بالمرض الشديد ، والشلل القريب من الموت .

وما زادت تعابير سيد والمعاصرين فيما يظن انه من عنف التعبير على حروف حذيفة .

انه ليس من افراط في حماسة الدعاة ، بل هو وضوح الدعوة الذي يفرض نفسه ، ولذلك نرى المعتنق لها بصدق سرعان ما ينشأ نشأة أخرى غير التي كان عليها تماما ، وتتحور مفاهيمه ، ويخرج من صومعته ليقود الناس ، كالذي كان من أمر التابعي وهب بن منبه اليماني . عرفه اليمن راهبا معنيا بسجع الرهبان وعلوم أهل الكتاب المحرفة ، فلما أسلم وسئل عن صفة المسلم قال : (يقتدي بمن قبله ، وهو امام لمن بعده)[2] .

فوصفه بالامامة والتصدي للقيادة بعد اذ كان هو نفسه منعزلا ، وما هو بفهم يبتدعه ، لكنه حين أسلم لم يجد مهمة المسلم المتعلم الا بهذه الصفة ، ووجد القرآن يصف ابراهيم عليه

---

(١) احياء علوم الدين ٢ / ٣١١ .

(٢) كتاب الزهد للامام أحمد / ٣٧٢ .

السلام بأنه كان أمة ، وفي أحد تفسيري هذا الوصف انه من الاقتداء والائتمام ، كما ذكر ابن القيم ، فانه قال : (الأمة هو القدوة الذي يؤتم به . قال ابن مسعود : والأمة : المعلم للخير . وهي فعلة من الائتمام ، كقدوة ، وهو الذي يقتدى به)[1] .

● البيعة القديمة الحديثة

وما كان جيل من أجيال المؤمنين القدماء الذين أحاطوا بالأنبياء القدماء يفهم ايمـــانه على أنه تصديق قلب مجرد ، انما فهموه اعانة ومساعدة باليد والمال ، ونصر بضم قوة المؤمن الى قوة جماعة المؤمنين في معاركها وصراعها مع الكافرين ، وكان ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وكل النبيين عليهم السلام يأخذون البيعة ممن يؤمن بهم على أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصرونه في صراعه مع الكفر اذا بعث نبيا وهم أحياء يرزقون ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك في قوله : « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قـــال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا. قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

(قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وينصرنه ، وأمره أن يأخذ

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ١٧٤ .

الميثاق عـلى أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن بـه ولينصرنه .)[1]

واذن ، فالبيعة علينا نحن الآن من ورثة محمد صلى الله عليه وسلم أوجب وأظهر الزاماً واولوية .

واعتماداً على هذا الميثاق القديم فهم ابن تيمية (أن الصادقين في دعوى الايمان هم : المؤمنون الذين لم يعقب ايمانهم ريبة ، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم ، وذلك ان هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين .)[2]

* لا مناص ولا لافكاك من تأييد الدعاة

ومن لم تسعفه ظروفه أو كفاءته أو مقدار علمه في أن يكون داخل الصف المجاهد فانه لا يعذر بالقعود ، بل عليه أن يعين من يأمر وينهى ويجاهد ، ويكون مؤيدا مساندا .

وبذلك قال الفقيه الامام الشاطبي ، فانه يتصدى لشرح معنى قول الفقهاء : ان فروض الكفاية ان قام بها البعض سقط الاثم عن الباقين ، وخصص وسمى من فروض الكفاية : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وطلب العلم ، والولاية والامامة ، أي الخلافة وطلبها وسياسة الناس بالشرع ، وبين رحمه الله انها وان سقط وجوبها عن غير القادر عليها ، فانه مطالب بالتفتيش عن القادر وحثه واعانته على القيام بها ، بل اجباره على القيام

---

(١) (٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠ / ١٢ .

بها ، وساق أمر الولاية كمثل ينسحب ليشمل ما نص عليه هو من العلم والأمر والنهي ، وعلى ما لم ينص عليه مما يوصف عند الفقهاء انه من فروض الكفاية .

(لكن قد يصح أن يقال : انه — أي فرض الكفاية — واجب على الجميع على وجه من التجوز ، لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة ، فهم مطلوبون بسدها على الجملة ، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلا لها ، والباقون وان لم يقدروا عليها قادرون على اقامة القادرين ، فمن كان قادرا على الولاية فهو مطلوب باقامتها ، ومن لا يقدر عليها مطلوب بأمر آخر ، وهو اقامة ذلك القادر واجباره على القيام بها ، فالقادر اذن مطلوب باقامة الغرض ، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر ، اذ لا يتوصل الى قيام الا بالاقامة ، من باب ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب)[1] .

وهذا كلام صريح لا يعذر أحدا من المسلمين في قعوده عن تأييد الدعوة الاسلامية مهما كان له من ظروفه العائلية والصحية والوظيفية والدراسية وأمثالها عذر يمنعه من الانتساب الفعلي .

عرف الشاطبي ذلك لمتانة منهجه في البحث وفهمه السليم لمقاصد الفقهاء الأوائل وهم يضعون القواعد العامة . ولأن عبد القادر عودة كان يسير على نفس المنهج ، ولم يكن ليحرفه هوى النفس ، فقد توصل الى نفس النتيجة ، وأوجب على الجماهير في كل وقت أن تؤيد الحركة الاسلامية الآمرة بالمعروف ،

(١) الموافقات للشاطبي ١/ ١١٤ .

وحمّل الجماهير مسؤولية تسلط أعداء الاسلام ، فقال :

(ان جماهير المسلمين قد ألفت الفسق والكفر والالحاد حتى أصبحت ترى كل ذلك فتظنه أوضاعا لا تخالف الاسلام ، أو تظن أن الاسلام لا يعنى بمحاربة الفسق والكفر والالحاد ، ولا يعنيه من أمر ذلك كله شيء .

ان الاسلام يوجب على المسلمين أن يتعلموا الاسلام وأن يتفقهوا فيه وأن يعلم بعضهم بعضا ، « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » . ولقد طالما نفرت طوائف من المسلمين فأنذروا قومهم وحاولوا تفقيههم في الدين ، ولكن الحكومات الاسلامية أخذت على نفسها أن تحارب هذه الطوائف ، وأن تحول بينها وبين ما يوجبه الاسلام ، إرضاء للاستعمار ، واطاعة للطواغيت ، وموالاة لأعداء الاسلام ، ورضيت الجماهير هذا الوضع من الحكومات ، وما كان لها أن ترضاه ، فشارك الجمهور الحكومات في خنق الاسلام وهدم الجماعات العاملة للاسلام) (١) .

ومثلما يكشف هذا القول عما كان في قلب عبد القادر عودة من لذعات ، فانه يشير أيضا الى أن قادة الدعوة لا يصطنعون ولا يغتصبون لأنفسهم حقوقا يطالبون بها جماهير المسلمين ، وانما يبنون مطالباتهم على أساس وبينات ومستندات تثبت لهم حقهم ، كهذا البيان الشاطبي الثمين .

---

(١) الاسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه / ٦٨ .

• قمة الوعي يرتقيها الامام البنا

وبتدبر كلام الشاطبي تفهم أيضا سر اعتداد الامام البنا رحمه الله بطريقته ومنهجه حين فاصل المضطربين وصارحهم أن :

(إن أبيتم الا التذبذب والاضطراب ، والتردد بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة ، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة ، وما النصر الا من عند الله)(١) .

فبين مفاصلة الأسلوب ومنهج العمل مع الواهمين ممن يعمل للاسلام ، وهي غير مفاصلة العقيدة مع أهل الكفر والبدعة ، فإنه هنا يتحدث عن المنهج الفاشل الذي يزينه الخوف لأصحابه أو توقعهم فيه البساطة والسذاجة ، والمنهج الفاشل عنده ما غاير منهجه ، أو اكتفى بجزئية من منهجه فحسب دون ما يكملها ، فإن عرفت منهجه عرفت ما يخالفه ، وإن أحطت بشمول وسائله استبنت قصور وسائل الآخرين .

وهو ، لذلك ، يوجز سمت الجد العام لمنهجه في العمل ، فيقول : (ان رواسب القرون الماضية ، ونتائج الحوادث الحالية ، لا يمكن أن تزول بأمنية تختلج في الصدور ، أو كلمة تكتب في الصحف ، أو خطب تلقى على الجماهير ، بل لا بد من طول الأناة ودوام المثابرة وعظيم المصابرة ، والدأب على العمل)(٢) .

---

(١) الى الشباب ، للامام البنا / ١٦ .

(٢) مجلة (الدعوة) المصرية في العدد ٦٧ .

اذن ليست هي كلمة أو خطبة أو غير ذلك من وسائل الفرديين ، بل لا بد من وسيلة أوجبها الاسلام لظهور أحكامه في التطبيق يجب أن تجعلها الحركة الاسلامية هدفا لها .

لا بد عنده (أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة اسلامية حرة تعمل بأحكام الاسلام ، وتطبق نظامه الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة وتبلغ دعوته الحكيمة للناس . ما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعا آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم في ايجادها ومن العقوق للانسانية في هذه الظروف الحائرة أن تقوم فيها دول تهتف بالمبادىء الظالمة وتنادي بالدعوات الغاشمة ولا يكون في الناس من يعمل لتقوم دولة الحق والعدالة والسلام)[١] .

وكرر هذا المعنى بحروف أوضح فقال :

(قد يكون مفهوما أن يقنع المصلحون الاسلاميون برتبة الوعظ والارشاد اذا وجدوا من أهل التنفيذ اصغاء لأوامر الله وتنفيذا لأحكامه ، وايصالا لآياته وأحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم . أما والحال كما نرى : التشريع الاسلامي في واد ، والتشريع الفعلي والتنفيذي في واد آخر ، فان قعود المصلحين الاسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة اسلامية لا يكفرها الا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الاسلام الحنيف)[٢] .

وتعتبر سيرة الامام العملية ، وبنائه للحركة الواسعة المنظمة ،

---

(١) بين الأمس واليوم ، المجموعة / ٢٢٥ .
(٢) المؤتمر الخامس ، المجموعة / ٢٧٢ .

خير شرح يفهم منه العاملون مذهبه في العمل الجماعي لتحقيق قيام هذه الدولة .

● المودودي يشرح المراحل

وقد شارك الأستاذ المودودي في رسم صورة الحركة الاسلامية التي يظنها أهلاً لتحقيق مهمة الاستخلاف في الأرض وبناء دولة الاسلام .

وهو يوجب على الجماعة الحركية أن تلتزم بتربية :

(مبنية على نظرية الحياة الاسلامية وفكرتها ، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الاسلام وتوائم طبيعته) (١) .

ثم تلح الجماعة على نفسها في تربية أفرادها على هذا الأساس لتنتج دعاة يقومون بمهمة نشر الفكرة من الذين (لهم حظ وافر في القانون والسياسة وفي كل فروع العلوم والفنون، من الذين امتزجت الفكرة الاسلامية بلحومهم ودمائهم ، والذين تثقفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعا يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات ، ومنهاج كامل للحياة العملية مبني على مبادىء الاسلام وقواعده ، والذين آتاهم الله من الموهبة والمقدرة ما يمكنهم أن يقارعوا به أئمة الفكر ممن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويجاذبوهم بحبل ، حتى يبسطوا سلطان سموهم الفكري على عقولهم وأذهانهم ، ويرغموهم على الاستسلام لزعامتهم الفكرية والعقلية) (٢) .

---

(١) (٢) منهاج الانقلاب الاسلامي ، مجموعة نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون /٨٢/٨٣

فاذا ما سارت الحركة شوطا في هذا المضمار التربوي والتبشيري تدخل مرحلة الصراع مع الفكر (مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد في المجتمع الانساني)[١] ، ذلك (أن نظام الامامة لن يحدث فيه أي تغير بمجرد وجود فئة مثل هذه في الأرض ، بحيث انها اذا تألفت وأخذت في الوجود مكانها ، تنزلت من السماء الملائكة ونحت الفاسقين الفاجرين عن كرسي السيطرة والسلطان وبوأوه هؤلاء الصالحين المؤمنين ، بل مما لا مندوحة عنه لهذه الفئة المؤلفة أن تستمر في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق)[٢] .

وخلال هذا الصراع (يمتحن القائمون بالدعوة وحاملو لوائها بأنواع من المصائب والشدائد ، فيقاسون الآلام والأهوال ، ضربا وقتلا واجلاء عن الوطن، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجلد واخلاص وعزم قوي، ويبتلون بالشدائدويفتنون)[٣] .

ولكن ثباتهم يؤدي الى احتدام صراع معاني الحق والباطل في نفوس أفراد المجتمع الذين يرقبون ثباتهم ، ويصل الصراع الى أوجه وذروته في نفوس بضعة أفراد كل يوم جديد ، فيقررون بشجاعة الانحياز الى جماعة الدعاة الثابتين ، وهكذا تستمر جمهرة الدعاة في ازدياد مطرد ، (أما أصحاب الطباع الفاسدة والذين في قلوبهم مرض ممن يتبعون الأهواء والشهوات فسوف

---

(١) منهاج الانقلاب الاسلامي ، مجموعة نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون / ٨٢ / ٨٣ .

(٢) الاسس الأخلاقية للحركة الاسلامية / ٣٤

(٣) منهاج الانقلاب الاسلامي / ٨٤ .

تختفي أصواتهم ويضمحل نفوذهم شيئا فشيئا بازاء تيار الحركة الجارف وسيرها الحثيث) [1] .

● أنس الطريق

وانها لمسيرة طويلة ، لكن يسلي أثناءها حداء الحادين .

وانها لمهمة صعبة ، لكن تهونها وتبدد تعبها بلاغة الصادقين حين ينادون . .

قم نعد عدل الهداة الراشدين
قم نصل مجد الأباة الفاتحين
قم نفك القيد قد آن الأوان
شقي الناس بدنيا دون دين
فلنعدها رحمة للعالمـــين
لا تقل : كيف ؟ فانا مسلمون
يا أخا الاسلام في كل مكان
واصعد الربوة واهتف بالآذان
وارفع المصحف دستور الزمان
واملأ الافاق : انا مسلمون
مسلمون مسلمون مسلمـــون
حيث كان الحق والعدل نكون
نرتضي الموت ونأبى أن نهون
في سبيل الله ما أحلى المنون [1]

---

(١) منهاج الانقلاب الاسلامي /٨٤

(١) ليوسف القرضاوي ، مما اعيد نشره في مجلة التربية الاسلامية ببغداد في مجلدها السادس / ٣٩٥ .

١٤ .... صفة جيل التأسيس

حقيقتان بازغتان تصفان الداعية المسلم دوما ، وفي ظلالهما يعيش سعيدا .

انــه :

لا الأرض تحده .

ولا العذاب يرهبه .

يرددهما مع المرددين :

نحــــن عصبة الألـــــه
دينـــه لنـــا وطــن
نحــــن جنـــد مصطفـاه
نستخـــف بالمحـــن

انه يعمل أنى هاجر وطرد، لا يعشق ترابا، ولا يضيق ضمن حدود أوهم الاستعمار غيره انها حدودهم ، ويتآخى مع كل بني الاسلام ، فان لم تكن الهجرة وكان السجن . كان سجنه

سياحة لروحه وفكره ، واذا شنق كان هبوط الحبل به علوا ينقله الى منزل جميل كريم .

الداعية (ينظر الى غالبه من عل ما دام مؤمنا ، ويستيقن انها فترة وتمضي ، وان للايمان كرة لا مفر منها . وهبهـا كانت القاضية فانه لا يحني لها رأسا . ان الناس كلهم يموتون ، اماهو فيستشهد. وهو يغادر هذه الأرض الى الجنة ، وغالبه يغادرها الى النار . وشتان شتان . وهو يسمع نداء ربه الكريم : « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار »)[1] .

والجاهليون يغفلون عن هذه الحقائق التي ينطلق منها دعاة الاسلام ، فيشردونهم ، ويضيقون عليهم ، لكنهم يخسرون كل جولة في النهاية ، بما صادموا من الفطرة التي جبل الله عليها الدعاة اليه .

وكل واحدة من هاتين الحقيقتين هي الوجه الآخر للحرية والأمل . الحرية التي ترفع الدعاة عن ثقل المطامع . والأمل الذي يدفعهم الى البذل .

فان شئت أن تقول ان هاتين الحقيقتين نتاج لهذه الحرية ، ولهذا الأمل ، كان لك ذاك .

---

(١) معالم في الطريق / ١٦٨ .

وان شئت أن تقول انهن أربع : الحرية ، والآمال ، وهاتان لم تعد الصواب ، وان لبين يديك في تاريخ الدعوة المثل من بعد المثل .

• درس من القاضي الزبيري

ولم يشحن تاريخ حركة بالأمثال مثلما شحن تاريخ الحركة الاسلامية قديما وحديثا ، ولكثرتها خفي بعضها على الناشئة الجدد .

وفي الخفي ما هو أروع من الجلي ، ومصداق ذلك قصة تصديق الداعية القاضي محمد محمود الزبيري رحمه الله لأقواله ووعوده وعهوده بسيرة عملية .

نشأ في بقية الارث الموروث من الايمان اليماني والحكمة اليمانية التي أقر النبي صلى الله عليه وسلم بها لأهل عصره ممن باليمن ، وعزم على الاصلاح ، ووثب وثبة خير سنة ١٩٤٨ مع الواثبين .

لم تكن وثبته تلك وثبة انتقام ، ولا حب تسلط ، ولكنه نظر النظر البعيد ورأى أن لا بد من تغيير يحفظ اليمن في يد الاسلام قبل أن تمد له يد تغيير تقلد موجة الشرود وتحاكي انقلابات الآبقين .

ولكن شاء الله ما لم يحسب الزبيري وصحبه ، فهاجر طريدا متنقلا في البلاد .

لقد فقد جهدا ، وضيعت عليه فرصة ، لكنه احتفظ بملك

حرية قلبه ، ففخر بما ملك وازدهى ، واستعلى وتباهى ، وأنشأ يقول :

خذوا كل دنياكم واتركــوا
فؤادي حرا وحيدا غريبـــا
فـــاني اعظمكــم دولــة
وان خلتموني طريدا سليبا [1]

ان دولته القلبية الحرة لأعظم من كل دولة أرض كان يمر بها تقام على تزوير ، أو دولة أخرى انقلب عليها ، صدقت ، لكنها تورطت في تقصير حق عليها بـــه قول التغيير .

انه فخر ولا ككل فخر تحمله هذه الأشطر .

انه فخر داعية يتجاوز أن يكون مجرد فخر بحرية القلب .

انه عهد عمل صاغه في كلمات من لغة الدعاة .

وللدعاة في عهودهم سمت أخذوه عن الزاهد جعفر الخلدي البغدادي ، وسنة في الوفاء ابتدعها لهم ، من حين أن قـــال :

(ما عقدت لله على نفسي عقدا فنكثته) [2] .

بهذه النفس كان الزبيري ، أديب اليمن الفذ ، يستعد استعداد من يملك الحرية ، ويحركه الأمل ، ويتعالى على حدود الأقطار ، ويستخف بالمحن .

---

(١) مجلة (المسلمون) ٢ / ٨٢١ .
(٢) تاريخ بغداد ٧ / ٢٢٩ .

خصال أربع منحته الصبر في فترة الصبر ، ووهبته التصميم على المناداة بالاسلام في فترة العمل ، فأسس الحزب الاسلامي في اليمن المتصارع يوم كان وزيرا للمعارف والتربية بعد الثورة في الستينات ، فتلقى رصاصات في صدره نقلته الى ما نحسبها شهادة له .

حسبوا أن الرصاصات ستنهي عمله ، فكانت رصاصات قدمت لظهور المد الاسلامي الواعي الكفيل باعادة السعادة الى اليمن الباكي المعروف بالسعيد .

● حرص على البيع

ترى أكان الزبيري يجهل أن جهره سيجلب الرصاصات إلى صدره ؟

كلا ، لكنها كذلك تضرب اليمن الأمثال . . .
انها سنة الدعاة في الحرص على الموت . .

لقنهم اياها خالد بن الوليد رضي الله عنه لما وصف من معه ممن فتح بهم العراق ، فغدت شرطاً في كل داعية ، في كل جيل .

قال للفرس :

(قد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة) [١] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٤٤ .

وصاغها لهم عبدالله بن المبارك ، امام التحديث وبطـــل الجهاد ، في بيتين كان يتمثل بهما كلما خرج لصالحة فيقول :

بغض الحياة وخوف الله أخرجني
وبيع نفسي بما ليست له ثمنـــا
اني وزنت الذي يبقى ليعدلـــه
ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا (١)

● لا تشتغل بترهات

فكذلك قاموس لغة الدعاة ، يتطور ويتنامى ، ويضيف كل جيل منهم جديداً إلى اصطلاحات صفاتهم .

وضع بعضهم كلمة الحرية في الاستعمال لما قال :

* **كن ابدا حرا أبيا** *

وأضاف آخر الأمل لما قال :

* **لنا غد والأمل** *

وزاد الثالث :

* **دينه لنا وطن** *

* **ونستخف بالمحن** *

وقبلهم وضع خالد اصطلاح : **(الحرص على الموت)** .

وأضاف ابن المبارك : **(بيع النفس)** .

---

(١) تاريخ بغداد ١٠ / ١٦٦ .

ويطالعنا الان الزاهد رويم باصطلاح لما طلب منه صاحبه أن يوصيه فقال :

(هو بذل الروح ، والا فلا تشتغل بترهات) [١] .

والأمر كذلك والله .

لاتعود هذه الأمة إلى إسلامها إلا بدعوة تؤسس ابتداء على بذل الروح ، والا فان الاماني مما دون ذلك ، والتعويل على احتمال سماع أئمة الكفر لوعظنا ، واللغة الدبلوماسية ، لا تعدو أن تكون ترهات فحسب .

ويا لها من صرخة في المشرق كان يمد ابن الجوزي بها صوته على شاطىء دجلة ببغداد ، ويهتف :

(أول قدم في الطريق : بذل الروح ..
هذه الجادة ، فأين السالك ؟) [٢] .

ولا زالت أجيال فتيان صباح الوجوه في كل قطر تجيبه أن : نحن السالكون ، الا قد بلغت ، وانا لنشهد . بلغتنا فانتظمنا وخرجنا عن التهور ، وها هي أرواحنا ملك التخطيط الموزون، نبذلها متى شاء .

وفي زمنهما كانت تجاوبها فصاحة مغربية تنطلق من لسان لسان الدين بن الخطيب تؤكد إن : نعم . إن :

(طريق القوم مبنية على الموت) .

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزي / ١٨٣ .
(٢) المدهش لابن الجوزي / ٢٩٩ .

وهي (**قطرة الدم**) أيضاً . كذلك سماها داعية بسيط من الرعيل الأول ، لا يحمل شهادة ، ولا له اسم مشتهر ، فقال لأميره بلسان الإيمان .

(ان قطرة الدم لا زالت غالية على المسلمين ، وما دامت قطرة الدم غالية فانهم لن يصلوا الى شيء ، لأن ثمن العزة والحرية قطرة الدم فقط) [1] .

وهكذا تكون قوة بلاغة لسان الصدق وان كان صاحبه لا يعرف الجرجاني ولا الجاحظ .

وهي الحدة والجرأة عند محمد اقبال ، قرن الثنتين في بيت فقال :

حديد : اذا ما طغى باطل
جريء لدى المعرك: المؤمنُ [2]

وهي التضحية في اصطلاح وليد الأعظمي حين يقول :

* **هو الاسلام تضحية يريد** *

وعند آخر : لن تكون العظمة مع هوى العيش . ويصوغها نشيدا يردد :

ان نفسا ترتضي الاسلام دينا
ثم ترضى بعده ان تستكينا
أو ترى الاسلام في أرض مهينا

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية / ١١٤ .
(٢) ديوان ضرب الكليم / ٢٩ .

ثم تهوى العيش نفس لن تكونا

في عداد المسلمين العظماء

ويجمع داعية فقيه كل هذه الاصطلاحات في فتوى فقهية واضحة بعيدة عن تهمة فرط الحماسة ، يقول فيها :

(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفائي يجب أن يكون في الأمة ، ولكن إذا كان الحاكم ظالماً باغياً لا يتسع صدره لسماع النصيحة إلى درجة أنه يقتل من يأمره وينهاه ، فان هذا الفرض يسع الفرد تركه ، لا الأمة ، ولكن من المندوب اليه ، بالنسبة للفرد ، القيام بهذا الفرض ولو أدى ذلك إلى موته ، يدل على ذلك الحديث الشريف : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قال كلمة حق لسلطان جائر فقتله » فيفهم من هذا الحديث أن من المندوب اليه : القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو أدى ذلك إلى قتل الآمر . ولا يعترض علينا بأن القاء النفس في التهلكة لا يجوز ، وهذه تهلكة . قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . » ، لأن الاستشهاد في سبيل الله ليس بالتهلكة ، وإنما هو ضرب من ضروب الجهاد ، وما يترتب عليه من تقوية نفوس المحقين وخذلان المبطلين وايقاف الظالمين عند حدهم ، فحسن لهذه المعاني ، وندب الشرع اليه .) (١)

---

(١) مجلة التربية الاسلامية ٥ / ٧٦٠ .

● المراحل الثلاث

ان هذه الفتوى ، والثروة اللغوية التي في قاموس الدعاة ، واقدام الهول الموصوفة من قبل ، وهذا المثال اليماني ، وعشرات الأمثلة في التاريخ الحديث والقديم ، لا تعني الاستعــجال ، ولكنها تثبت بندا في قانون التربية الحركية للقاعدة الصلبة ، عنوانه : غرس الاستعداد وشرح التبعة منذ البداية .

الاستعداد النفسي لبذل الروح وقطرة الدم عند الحاجة ، فليست الدعوة جمعية خيرية تقنع بالقايل .

والاستعداد للتعب اليومي ، فدون غاية الدعوة رحلــة طويلة ، وليست هي مجرد تصفيق في احتفال أو استحسان لمقال.

والاستعداد بانفاق السرور ، وتحمل ثقل مصائب الأمة ، بتداء بقضية فلسطين ، وانتهاء بمآسي التنصير في أندونيسيــا مذابح المسلمين في البنغال والفلبين .

وهذه الثلاث هي وجه للمرحلية التي ذكرها أحد الوعاظ قديماً في قوله :

(يا هذا : أول الطريق سهل ، ثم يأتي الحزن .
في البداية : انفاق السرور .
وفي التوسط : انفاق النفس) .

وهذا يقتضي أن تكون هناك نهاية أيضاً ، وأن يكون في النهاية ما هو أكبر من انفاق النفس ، ولم يذكره ، لكن الدعاة يميزونه في صورة لعلها هي (انفاق ما بعد النفس) ، وأظنها

صورة الشوق الشديد إلى الحوريات السبعين ، فهو اجتماع الشوق بدرجة تنسي الداعية طعم الراحة ، ولذة الطعام ، وأنس الزوجة ، وتجعله هائماً راكضاً بلا التفات .

ومن هذا الوصف القديم للمرحلية ، الذي جاء على لسان الواعظ ، ومن وجهها الاخر الذي رسمته الاستعـــدادات الثلاث ، يتضح الوصف الحركي الحديث للمرحلية المتدرجة المتناسبة مع القوة والواقع المحيط ، المنسابة مع انسيابية سير الحاضر نحو المستقبل ، وانسيابية الاقتران الكامن في فقه الدعوة بين تفقهنا الشرعي وخبرتنا التجريبية .

● حديث من استراح

هذا ، كما يقول الامام أحمد ، أو هوحديث ذي العقـــل المستريح .

كان الامام أحمد بن حنبل رحمه الله داعية نبها يقود تجمع دعاة من أهل التضحية والبذل ، وكان يعرف قيمة ثبات الداعية في المحن ، واثر عدم اجابته لما يدعونه اليه من القول بخلق القرآن في تثبيت المسلمين ، فمن ثم لم يجد لمن لا يفهـــم معاني لغة الدعاة واصطلاحات قواميسهم غير اصطلاح : **(أصحاب العقول المستريحة)** .

انه لا يكرههم ، ولا يزدريهم ، بل يحبهم ويحرص عليهم ، ويستفيد من خيرهم مهما قل ، ولكنه لا يدخلهم صفه

ما دامت عقولهم تتمتع بالراحة ولا تحركها مصائب المسلمين .

قال أحمد بن داود أبو سعيد الواسطي :

(دخلت على أحمد الحبس قبل الضرب ، فقلت له في بعض كلامي :

يا أبا عبدالله : عليك عيال ، ولك صبيان ، وأنت معذور .

ـ كأني أسهل عليه الاجابة : ـ

فقال لي أحمد بن حنبل :

ان كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت) [1] .

وما أكثر ما يقال مثل هذا للدعاة اليوم ، وما أكثر من يفهم الاسلام ثم يحدث نفسه بمثل هذا ، فيجبن وينزوي ولا يشارك الدعاة سيرهم . وانما هو حديث من استراح ، كما يقول الامام أحمد ، وأما من لذع واقع الاسلام قلبه فأنى له الراحة ؟ وانى يدع لصبيانه وزوجه مجال تخذيله وتقييده عن الاندفاع مع الدعاة ؟ وهل الموت الا في آجال ؟

هذا داعية المنصورة بمصر صلاح الشربيني رحمه الله ، لم يمته رصاص الانكليز لما قاتلهم على قناة السويس ، ولكنه مات على سرير مستشفى بعد أيام الحج بمكة .

وهذا داعية البصرة قيس القرطاس رحمه الله ، لم يمتـــه

(١) طبقات الحنابلة ، لابن ابي يعلى ١ / ٤٣ .

عذاب السجن الرهيب ، ولكنه مات مخنوقاً بالغاز في حمام بعد خروجه من السجن بأيام .

وهذا داعية غزة عمر ابوجباره رحمه الله صاحب الدعوة منذ صباه ودخل السجن فلم يمته تعب البذل اليومي ومات من سقطة بسيطة

ان عهد الدعوة لن يقدم اجلا ، ولكنه يرفع إلى الفراديس

فان لم يكن المسلم مع أحمد ، أو مع ورثة أحمد اليوم ، وقعد لعذر أو شبه عذر ، فانه مطالب بالأسف وازدراء نفسه على الأقل ، الا يكون مع القوم العاملين ، كما قيل للزاهد الثقة بشر بن الحارث الحافي يوم تعذيب أحمد :

(قد ضرب أحمد بن حنبل الى الساعة سبعة عشر سوطا .

فمد بشر رجله ، وجعل ينظر الى ساقيه ويقول :

ما أقبح هذا الساق ان لا يكون القيد فيه نصرة لهذا الرجل[1]).

مع انه شهر واذاع حبه لأحمد ، لكن الخليفة تركه لشهرته بالزهد وحب العامة له ، وخاف ان يوسع دائرة النقمة عليه .

فالمؤمن الصادق ان عذر نفسه وأفتاها بالتخلف ، لنوع ضرورة أو ضعف يدريه من نفسه أو شبهة ، عرف ما يوجبه ذلك من التواضع وترك التطاول على الدعاة ، ويظل يتهم نفسه في اجتهاده ، ويمنح الصابرين المقتحمين لسانا جميلا يكون لهم فيه نوع سلوة وراحة . واما اسير هواه فيجادل ويثرثر ، ويقذف لسانه بكل لفظ صلب ، الا يوصف بتخلف ، فيجمع بجداله نقصاً إلى نقص ، والعياذ بالله .

ولن يزول المتخلف المستريح عن منازل الملومين حتى

---

(١) مناقب أحمد ، لابن الجوزي / ١١٩ .

ويفقه الوصف الحركي ، وينطق بلغة الدعاة ، وينشد معهم ينقد على نفسه حاله الأول :

بريء الاسلام من شاك مضيم
لا يراه غير صوم وصلاه
ذروة الدين جهاد في الصميم
فلنجاهد ، أو لتلفظنا الحياه

فهذا هو القول الموجز والحكم الاخير في حالة المسلمين اليوم في جميع اقطار الاسلام .

اما جهاد وتعاهد على ارخاص قطرات الدم .

واما ان تلفظهم الحياة ، ويستبدل الله تعالى بهم آخرين ، اذلة على المؤمنين ، اعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، ولايخافون لومة لائم ، ولا يغريهم جمال نساء ومال ، ولا يرهبهم طغيان طاغية ، واستئساد جاهلية .

نعم . . . هذا أو لقب ذي العقل المستريح .

هذا . . . والا فانها الترهات .

١٥ .... التوسّع الموزون والانتشار المتأنّي

أول ثمرات العزة الايمانية التي يحسها المؤمن : ادراكه ما في الاسلام من قوة الحقيقة التي يكفي لكي تعلن عن نفسها ان تتمثل في فرد واحد ، وما في الاراء الجاهلية المخالفة من زيف الباطل ، واحتياجها إلى سواد كثير وعدد كبير من الأفراد ، يأسر منظرهم كل ساذج ، فيغتر ، وينطلي زيف الباطل عليه ، دون ان يدرك ما هم فيه من الضلال .

ومن هاهنا رأينا تمثل الأمة الاسلامية أكثر من مرة بمؤمن واحد فقط ، كما قال الله تعالى :

(ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا) قال ابن تيمية : (أي كان مؤمناً وحده ، وكان الناس كفاراً جميعهم .)[1]

وفي صحيح البخاري أنه قال لزوجه سارة : (يا سارة : ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك .)[2]

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١ / ٤٣٦ .

(٢) صحيح البخاري ٤ / ١٧١ .

ثم كما تمثلت حينا بمحمد صلى الله عليه وسلم وحده .

ومن ها هنا أيضاً انسد باب شعور المؤمن بالغربة ، فهو — لأنه يمثل الايمان والحقيقة — يشعر بأن الناس جميعاً وهم في ضلالهم هم الغرباء التائهون .

ولذلك ، فانه لما توهم واهم فوصف عبدالوهاب عزام بالغربة ، كان جوابه سريعاً ، فقال :

قال لي صاحب : أراك غريبا
بين هذا الانام دون خليـــل
قلت : كلا ، بل الانام غريب
أنا في عالمي ، وهذي سبيلي [1]

أما غربة الغرباء الذين ذكروا في الحديث الشريـــف : (طوبى للغرباء) فهي غربة بالنسبة للواقع ، أي لندرتهم وقلتهم بين غثاء ضال ، اما في عالم الضمير والشعور فان للمؤمن الفرد من ايمانه أنيساً ورفيقاً وخليلا يبعد الغربة .

● ليس علينا غير البلاغ

وهذا التباين في شعور الداعية إلى الايمان ، عن شعـــور الداعية إلى الباطل ، جعل دعاة الباطل في تعب دوماً ، وفي تبديل لصور باطلهم حين لا تنطلي على الناس ، ويبررون ذلك بالتطور الفكري والديالكتيك ، ويرون — بعقلية تجارية بحتة تضع حساب الأرباح والخسائر المادية فحسب — ان من يتكلم

---

(١) ديوان المثاني / ٣٤ .

ويكتب لاشاعة فكرة معينة ولا يستجيب له الناس عليه ان يسارع إلى تبديلها باخرى تجد لها تصريفاً . أما الداعية المسلـــم فهو يعتقد بان عليه تحري القول الصائب الموافق للشرع ، واتباع الأسلوب الملائم حسب اجتهاده ، ثم الله هو الذي يتولى ما بعد ذلك ، فان لم يستجب أحد فلحكمة ربانية ، ولو شاء الله لهداهم ، ولكن كره الله انبعاثهم مع الدعاة ، ولا يسع الداعية المسلم الا الثبات على ما يعتقد .

وبهذا الوعي لهذه الحقيقة الايمانية أجاب يوسف القرضاوي من اعترض عليه ، فقال :

عجبت لهم قالوا : تماديت في المنى
وفي المثل العليا وفي المرتقى الصعبِ
فاقصر ولا تجهد يراعك انمـــا
ستبذر حبا في ثرى ليس بالخصبِ
فقلت لهم : مهلا ، فما اليأس شيمتي
سأبذر حبي والثمار من الرب
اذا انا ابلغت الرسالة جـــاهدا
ولم أجد السمع المجيب فما ذنبي ؟[1]

وهذا من قوانين الدعوة الاسلامية .

اننا إذا لم نصل إلى ما نبغي ونريد ، فحسب عملنا ان يشجع الجيل اللاحق على مواصلة السير ، فان النجاح في الابتداء دليل على امكان الانتهاء ، أو كما يقول الرافعي :

(١) مجلة (المباحث المصرية) عدد ٣١ لسنة ١٩٥١ .

(البدء في تحقيق الشيء العسير : حسبه ان يثبت معنى الامكان فيه .) [1]

ووجود هذه النماذج الجيدة من دعاة الاسلام في كل مدينة من مدن الاسلام حسبه ان يثبت معنى امكان تطبيق المثل العليا الاسلامية من خلال تجمع حركي في وسط مظلم قاتم . وهذا الاثبات هو منطلقنا لمواصلة السير ، والاكثار من تربية مثل هذه النماذج ، حتى نصل حدا عدديا كافياً لهداية من حولنا .

فان لم يستطع الدعاة اليوم النصر فحسبهم أنهم كانوا – كما يقول سيد قطب – : (اجراء عند الله ، اينما وحيثما وكيفما ارادهم ان يعملوا : عملوا وقبضوا الأجر المعلوم ! وليس لهم ولا عليهم ان تتجه الدعوة إلى أي مصير ، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير .) [2]

• نريد أن نكون أئمة

وانما ذاك ما يقتضيه الايمان .

والا فان في الفطرة ميلا إلى كثرة الأنيس ، والعين تحب ان تقر بتسلط الايمان على الكفر ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

وهذا ما يجعل الداعية حريصاً كل الحرص على تعلم فنون

---

(١) وحي القلم ١ / ٢١ .

(٢) معالم في الطريق / ١٨١ .

الدعوة ، لينجح في نقل مزيد من الشباب من التيه إلى الطريق المستقيم ، وتراه ينتشي ويبلغ أقصى اللذة حين يأخذ بيعة جديدة ، ويكون من احب ادعية القرآن لديه ان يقول :

(واجعلنا للمتقين اماما)

وما دعاؤه هذا من الاستشراف للمسؤولية والتزعم وحب الظهور بحيث يكون مكروها ، بل كما قال ابن القيم :

(هو يحب الامامة في الدين ، بل يسأل ربه ان يجعله للمتقين اماما ، يقتدي به المتقون ، كما اقتدى هو بالمتقين . فاذا احب هذا العبد الداعي إلى الله ان يكون في اعينهم جليلا ، وفي قلوبهم مهيباً ، واليهم حبيباً ، وان يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده : لم يضره ذلك ، بل يحمد عليه ، لانه داع إلى الله يحب ان يطاع ويعبد ويوحد ، فهو يحب ما يكون عونا على ذلك موصلا اليه ، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه واثنى عليهم في تنزيله واحسن جزاءهم يوم لقائه ، فذكرهم بأحسن اعمالهم واوصافهم ثم قال : « والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما . » ، فسألوه ان يقر اعينهم بطاعة ازواجهم وذرياتهم له سبحانه ، وان يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته ، فان الامام والمؤتم متعاونان على الطاعة فانما سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته ، وهو دعوتهم إلى الله بالامامة في الدين .) [1]

---

(١) الروح ، لابن القيم / ٢٥٢ .

• سعة التجميع تتناسب
مع طاقة التربية

ولكن حب الامامة في الدين يجب أن لا يخرجنا الى نوع تساهل في الصفات الايمانية والطبيعية التي نشترطها لمن يريد أن يكون مع الركب ، ويجب أن يكون هناك – على طول الخط – تناسق وتوازن بين سعة التجميع وسعة طاقة التوجيه التربوي التي نملكها ، فان من أخطر الأخطاء أن تتوغل الدعوة في تجميع واسع قبل أن تكون هناك صفوة من الدعاة قادرة على أن تتولى تربية كل الذين يتجمعون حولها ، بل يجب أيضا أن يبقي رجال الصفوة بعض أوقاتهم لمواصلة تربية أنفسهم هم بالعلم والعبادة ، والا قست قلوبهم من بعد لذة الابتداء ، واذا قست القلوب فقدت شيئا من معاني الأخوة .

هذا التوازن ليس بخاص في بداية الدعوة ، وانما يجب أن يكون هو المسيطر على سعة التجميع في أدوار الدعوة كلها ، والا تسرب الخطر .

ومن هنا فان الخطة لا تتصور في مراحلها الأولى احتمال حيازة رجل الشارع واستقطاب الجماهير الواسعة ، بل لا يمكن أن يكون ذلك الا اذا خرجنا الى نوع تساهل في الشروط ، ومن المزالق أن تسير الدعوة وراء رجل الشارع حريصة عليه قبل حصول المقدار اللازم من الوعي الاسلامي والعدد الكافي من أصحاب التربية الصلبة .

ان المتولعين بالسياسة من الدعاة يريدون للدعوة أن تدخل في سباق مع الأحزاب لاكتساب رجل الشارع ، في الوقت الذي أبان رجل الشارع في البلاد الاسلامية كلها عن طبيعته في قلة استعداده للسير الطويل مع جماعة معينة .

رجل الشارع ، والغوغاء ، والدهماء ، والمصفقون : هم مادة الأحزاب الجاهلية الأرضية وعنصر حياتها ، لأن هذه الأحزاب تستطيع أن تبدل وتحور برامجها وفق طلبات هؤلاء وتبعا لاستهلاك السوق .

أما الدعوة الاسلامية فما بمثل هؤلاء تنتصر ، وما بمثل هؤلاء تغير مجرى الحياة .

ان التجميع القطيعي ممكن ، لكنه لا يستمر طويلا .

هذا فضلا عن أن التجميع الواسع ينتقل بالدعوة الى وضع جديد تحتاج فيه الى كفايات ضخمة تستخدمها في الادارة ، والى قدوات عالية المستوى لادامة بقاء التجمع في رحاب الحياة الروحية أثناء انغماس الجميع بكثرة الأحداث . واذا لم توجد مثل هذه الكفايات والقدوات قبل بدء التجميع الواسع والعمل مع رجل الشارع فان الدعوة تكون قد عملت على ايجاد جماهير تنتسب الى الاسلام ، لكنها ذات رغبات ساذجة تنفر من الخطوات الحكيمة وتندفع اندفاعات غير موجهة ولا هادفة ، وربما طوعت الاسلام لقبول ما ليس منه وحملت مفاهيم مشوبة بنظريات الكفر وعقائد مختلطة بالبدع .

● اتزان التوسع الميداني

وكما يولد التساهل في الانتقاء ، والتكاثر الذي يلهي عن التركيز ، أنواع التورط والاندفاع العفوي غير الهادف ، فان حماس الدعاة في استدراك التقصير ، والربأ بنفوسهم ان يسبقهم الارضيون والمنحرفون والملاحدة ، والحرص على تغطية ميادين العمل الثقافي والسياسي التي يتم فيها توجيه الناس ، كل ذلك قد يدعوهم وينقلهم إلى تقليد الأحزاب الأرضية في خطط عملها بلا مراجعة للرصيد ، ويقذفهم إلى مواجهة أهل الضلال في جميع الميادين والجبهات قبل الاستعداد الكافي ، فيحصل (تشعب العمل) ، و (توزع جهود ذوي الكفاية) ، فيقل التأثير في كل الميادين ، ويكون التعب والارهاق المستنفد للطاقة ، تماماً كالذي يحدث في المعارك الحربية ، فان التاريخ الحربي يظهر نماذج كثيرة لقادة فقدوا دقة التخطيط الاستراتيجي ، ففتحوا جبهات متعددة في آن واحد وزعت قواتهم ، ولم يصفّوا اعداءهم واحداً بعد الآخر ، فكانت الهزيمة ، ولا تزال فنون التعبئة العسكرية توصي القادة بألا يطيلوا جبهة المعركة الواحدة ، وان يهاجموا بالعمق الذي يكفل تعدد وجبات الهجوم ان أخفق الهجوم الأول ، ويضمنوا وجود الاحتياطي لدرء المفاجآت وحركات الالتفاف .

وليس قولنا هذا دعوة للراحة ، فان الراحة موت ، ولا للبرود ، فان فيه الفوت ، ولا لتحريم الاستفادة من فنون

العمل التي برع فيها الجاهليون ، فان الأمر يسع الاقتباس ما لم يصادم نصا شرعياً أو عرفا أخلاقياً استحسنه المؤمنون ، ولكننا ندعو إلى تقدير واقعي لطاقاتنا ، وتركيز لجهودنا ، وتجزئة الاستدراك بتغطية المجالات حسب أهميتها ، فان الجهود المبكرة للكافر المستعمر في انشاء الأحزاب أدى إلى ان تسبق الأحزاب الدعوة الاسلامية ، وساعد على ذلك حيرة المخلصين بعد اسقاط الخلافة العثمانية الشرعية ، ولا يكون الاستدراك بطفرة ، بل بسير موزون ، ومن ثم كان (اتزان التوسع الميداني) قرين (اتزان التوسع العددي) في الوقاية من المصارع ، وارتباط التأثير بكثافة المسموع والمنظور في الظاهرة التربوية يوجب مراعاة هذه الكثافة المتناسبة مع سعة الميادين التي تتوزع عليها تناسبا عكسياً ، والتي تكثف كلما قلت الميادين .

والتاريخ القريب يرينا وقوع بعض اجزاء الحركة الاسلامية في مثل هذا التوزع والشمول المستعجل كرد فعل لكثافة الاحداث السياسية ، والتنامي الحزبي ، إذ لجأ الدعاة إلى معاركة الجاهليين في النقابات ، والاتحادات المهنية والنوادي الأدبية ، وعموم المرافق الاجتماعية ، في وقت كان عدد أصحاب الكفاية والدربة فيه قليلا ، وكان النظر المتزن يوصي بالالحاح في التربية الداخلية ، وتعميق الايمان ، وتمتين الصف بغرس معاني الطاعة والالتزام ، قبل ولوج جولات التنافس .

ان الداعية الفقية لا يستفزه تغلب الملحد القوي ان كان هو ضعيفاً ، بل يكظم غيظه ، ويصبر ، ويبدأ يعمل في انتظام ،

ويطلب لرجله قبل الخطو موضعها من الأرض الصلبة .

● التطوير ينطلق من المعاناة

وحماس المتحمسة من الدعاة لا يثمر على اطلاقه ، فانه محكوم بالواقع في بعض جوانبه .

وأهم ظواهر هذا الواقع الآسر عن مماشاة الحماس وتنفيذ التمنيات : هو ضعف بعض الدعاة وقصور مستوياتهم عن التمكن من مجاراة الآخرين . فمجابهة الجاهلين في جميع الميادين التي يطرقونها الآن ، يقتضي نوعا من المقدرة والصلابة لدى الدعاة يشير واقعنا الى قلة من يتصف بها بالمستوى الذي يستطيع فيه أن يقود ويبتكر ويحرك ويستمر ، ومن دون أن يتركز الثقل على عاتق أنفار معدودين من الدعاة .

ان النقطة التي يغفلها المتحمسة تتجلى في أن القسط الأعظم من فقه الانتقاء والتشدد المتولد عندهم ، ومن صلابة النية والاصرار وعلو الهمة ، انما كونهما فيهم تفكير سنوات ، وتفاعل قلبي عميق متواصل مع أخطاء الماضي ، ومعاناة يومية لعمل طويل ، ولا يمكن لفاقد هذا الفقه وهذه المعاناة أن يكون بمثل مستواهم عند التنفيذ .

انها حقيقة واقعة ، تنقل التخطيط عن المثاليات والارتجال الى التدرج المتناسب مع الطاقة ، ومن الخطأ أن تطلب سيرة صلبة واعية لدعاة ضعفاء ، ومجرد الالحاح عليهم لا يكفي ان لم يسبق بتربية .

● التركيز على مصنع الثقات .. !

وهل رأيت الدول النامية كيف تركز حكوماتها على الصناعة الثقيلة في أول أمرها ، لأنها مفتاح كل صناعة أخرى ؟

كذلك نحن في أول أمرنا ، ولما نزل في مرحلة تشبه أول الأمر لكثرة الأخطاء وعنف حرب الكفر وعملائه لنا .

يجب التركيز على مصنع الثقات الذي يربي الدعاة المسلحين بالايمان والفقه الحركي وتكديسهم ليجابهوا الكفر في ميدان إثر ميدان ، ولا بد من ان ترصد الكفايات لخدمة الجهاز المربي للثقات وتمتينه وتقويته .

ان الفترة منذ بداية أي جزء من أجزاء الحركة الاسلامية في عمله إلى الأيام التي يقارب فيها القوى الجاهلية المحيطة به يجب أن تكون فترة انتباه للتجميع وتربية وتفقيه ، وكل فتح لميدان جديد ، أو واجهة ، أو تحول إلى الانغماس في المعترك السياسي كلية ، فان معناه حصول التصادم بين متطلبات الجهاز التربوي ومتطلبات الميادين الجديدة والنشاط السياسي ، المتسبب من قلة أصحاب المقدرة والكفاية الذين يديمون تلبية هذه المتطلبات ويديرون الأجهزة المختلفة ، ولا يسوغ في التخطيط ان تنفتح الدعوة انفتاحاً واسعاً في العمل قبل تأكدها من وجود ثقات بعدد كاف يديمون هذا الانفتاح ، ويحولونه عن مجرد فورة سريعة ورد فعل لاستفزاز الجاهليين لنا ، وان كان هذا

لا يمنع من تدريب بعض الدعاة ، وبعدد قليل ، بالمشاركة في هذه الميادين عملياً ، ليكونوا رواداً موجهين في أيام الانفتاح .

● الكتاب ... والبأس الشديد .. !

وانه الحديد يكمل القرآن ، حقاً

كلام مقدس قاله الله تعالى ، محكم غير متشابه ، ماض غير منسوخ ، أراده عزت ارادته أن يكون للدعوة الاسلامية شعارا ، ودستور عمل ، ومعلم طريق ، فجعله جل وعلا في آية تتلوها الملايين كل يوم ، ان : بسم الله الرحمن الرحيم . « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوي عزيز » .

فكل قلب أحكمت أقطاره ولم تتشابه ، ومضت الى الخير عزيمته ولم تنسخ ، فهم هذه الآية فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها .

فهمها أبو بكر رضي الله عنه ، فكانت حروب الردة .

وفهمها عمر الفاروق رضي الله عنه ، المشتق لقبه من أسماء السيف ، فكان منه الاقرار لمن لوح له بالسيف أداة تقويم ان زاغ واتبع الهوى .

وتواصت أجيال المسلمين بعدهما بهذا السلوك وتواصت بالقرآن ، فبعدوا عن الخسران .

حتى اذا خسروا ، وفق الله ابن تيمية رحمه الله يتلو عليهم هذه الآية ، ويفسرها ، ويقول لهم :

(ذكر تعالى انه أنزل الكتاب والميزان ، وانه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط ، وليعلم الله من ينصره ورسله ، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي ، وسيف ينصر ، وكفى بربك هاديا ونصيرا)[1] .

ويؤكد لهم انه :

(اذا ظهر العلم بالكتاب والسنة ، وكان السيف تابعا لذلك ، كان أمر الاسلام قائما)[2] .

● ارتقاء المدارج مع السالكين ... لا الطفرة .

ولكن الامام البنا رحمه الله أوجب الابتعاد عن التهور ، وحذر المتحمسة الملحاحين ، وعلمهم أن :

(من خصائص هذه الدعوة كذلك :
التدرج في الخطوات .
وانتظار الزمن .
وعدم التسرع بالنتائج .
فلكل أجل كتاب)[3] .

وكرر عليهم : أن الدعاة الفقهاء :
(شعارهم في ذلك : الزمن جزء من العلاج)[4] .

---

(١) (٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠ / ١٣ ، ٢٠ / ٣٩٣ .
(٣) (٤) مجلة (الدعوة) المصرية عدد ٦٧ .

وبذلك حدد الامام علاجا رابعا يحمي الدعوة من أنواع التورط والاندفاع غير الهادف ويقيها المصارع ، وأطلق عليه اسم : (الانتظار) .

وهكذا ، فان من تمام واجب التربية الاسلامية الحركية في مرحلتها الحاضرة : غرس الاستعداد النفسي للانتظار الذي تكمل أثناءه صناعة الاختصاصات التي تتولى الانتشار والتوسع الميداني ، ثم ما يتطلبه هذا الانتظار الايجابي من الاقلال المرحلي في ولوج السياسة .

اننا نجد أنفسنا في الحقيقة – ما دمنا نبذل الجهود التربوية بتواصل – أثبت من أن نأبه لشيوع هذه الأفكار الأرضية المستوردة ونتقبل أخبار انتصارات هذه الأحزاب بشجاعة ، فانها ليست الا من الانتصارات الوقتية غير المؤهلة للدوام ، وستعصف بها جهودنا التربوية متى ما صدق عليها وصف التربية وخرجت عن حد الفورة والارتجال .

بل أبعد من ذلك ، فلعلها حكمة الله في انتصار هذه الضلالات ، لأنها عجزت عن صنع الواقع السعيد الذي وعدت الناس به ، وعجزهم هذا معناه فشل لجهودهم التربوية ، وانها لفضيحة كبرى تعيشها الأنظمة الفاسدة والدكتاتوريات التي أرادت حرف الناس عن الاسلام هي في وجهها الآخر اختصار لطريق دعاة الاسلام .

انه الطريق التربوي : صعب ... طويل ... بطيء ...

يسبقنا فيه الأرضيون لوقت ... يسقط فيه بعضنا ... وتفوتنا بعض المغانم فيه .

لكنه طريق مأمون ، ثابت ، مضمون .

وقد يرى البعض أن هذا الطريق البطيء لا يعود الدعاة على التضحية ، ويرى اننا نسقطها من حسابنا .

ولكن الأمر ليس كما رأى ، فان التضحية مطلوبة ، ولكن في وقتها ، ولا تؤتى مفتعلة ، وخير الدعاة من بذر بذورها في نفوس اخوانه منذ الآن .

انه طريق واحد أصيل لا ثاني له : طريق التربية التدريجي الذي أوجزه الأستاذ المرشد حسن الهضيبي رحمه الله بقوله :

(أقيموا دولة الاسلام في صدوركم ، تقم في أرضكم) .

وخطواته : أن تشيع الوعي الاسلامي ، وتجمع ، وتربي ، وتتوسع في اتزان ، وتنتشر في تأنٍ ، وتنتظر حتى تكتمل الاختصاصات ، وترقب ضعف من تسلط زورا ، وترفع يدك الى الله داعيا أن يرحم المسلمين ، حتى يسقط رداؤك عن منكبيك ، فانه ان سقط : علوت .

● أهمية الوعي الحركي في التعجيل

ولكن واقع الحركة الإسلامية يشير إلى امكانية اختصار هذه الفترة اختصاراً كبيراً ، والتعجيل في الانفتاح المبتغى ، بواسطة الالحاح في نشر الفقه الحركي وترويجه وايصاله إلى أصحاب الاخلاص الذين يعوزهم هذا الفقه ، فان الدعاة

كثير عددهم في كل مكان ، أو قل : من سلم زمامه للدعوة والدعاة ، ولكن هذا الفقه الحركي هو الذي ينقصهم ، ولو علمناهم اتعاب الانفس وارهاقها ، والصبر على سهر الليالي وحني الظهور لتدارس هذا الفقه لوعى منهم جيل كثير من أصحاب الاستعداد يسدون الشاغر ويحلون محل الضعيف .

ان من أبرز التقصيرات المأخوذة على الحركة الإسلامية في حقبتها الماضية : تقصيرها في تدوين أوليات الوعي الحركي وفقه الدعوة ، وإطنابها في شرح أنظمة الإسلام وجزئياته ، حتى بتنا نرى هذا العدد الكبير الضخم من المنتسبين للدعوة دون أن يكون انتاجهم وتغييرهم للواقع بالمستوى الذي يظنه من يراهم لأول وهلة ، لفوات فنون العمل وأصول العمل الجماعي عنهم ، وإنما يبدأ الاستدراك من هذه الحقيقة .

الاستدراك بالتأليف في فقه الدعوة .

والاستدراك بجمع المتناثر الذي ألف فيه .

والاستدراك بالتفتيش عما تملكه أجزاء الحركة الاخرى منه .

والاستدراك بتنسيق تدريسه وتعويد الدعاة على أخذه مأخذ الجد لا وفي مطالعات عابرة .

١٦ الانتقاء يقي المصارع

شتان ما بين سلوك العقيدي وسلوك الفائر .

العقيدي له موازين محددة ، يزن ويقيس ويمحص ويستنتج قبل ان يخطو .

والفائر يغضب ويندفع ، ويسرع ويستعجل ، فيتورط .

ولهذه الصفات الفردية اصداء وانعكاسات في المجموع ، فالمجموع يندفع اندفاعات عفوية بالحاح من اعضائه ، فتتبدد القوى ، ويكون الفشل .

انه الاندفاع العفوي الذي يسير فيه المجموع بلا خطة ، أو بخطة لاتلائم الواقع وبلا هدف ، أو بهدف غير مركز ، ولا واضح وتتمحل الاماني والمثاليات والأحلام لجعله هدفا .

وهذا وصف مرعب في الحركات ، يرغمها على التفتيش عن حلول تقي مصارع العفوية .

• صعود الثقات رأس الوقاية

وأول الحلول يتمثل في تواصي قادة الحركة وجنودها بسمت من التشدد في تسليم مراكز التوجيه داخل الحركة ، وتأمين صعود الثقات اليها ، من اصحاب الايمان والعلم والعمل .

كذلك فان صعود الثقات الى مراكز التوجيه هو الذي سيؤمن وضوح الأهداف البعيدة في أذهان المخلصين الفائرين من جنود الدعوة الجدد الذين لم تعركهم التجارب وهو الذي سيؤمن تفسير السياسات المرحلية لهم وايضاح تبريراتها ، وفي كل هذا مساهمة أكيدة في التأمين ضد الاندفاع المستعجل ، وضد الاندفاع غير الهادف .

والداعية حين ينظر الحالة الراهنة للحركات الاسلامية المنبثة في العالم الاسلامي وحين يرجع الى تاريخها ، تتجلى أمامه عظم رعاية الله سبحانه لها في اختيار قادتها ، فليس فيهم الا امام له قدم راسخ في العلم والصدق والاخلاص ، لكن قد تجد لهم نوع تساهل في اختيار الأعوان دفعوا ثمنه غاليا في انشقاقات وفتن ، أو في مواقف لينة ، وكأن ذلك من تمام العناية الربانية أيضا ، فانهم من خلال التساهل تعلموا التشدد ، ومن معاناة التعامل مع الضعفاء تعلموا الحرص على الانتقاء ، وليس مثل العلم التجريبي .

تجاربٌ أبدلتني غير مـــا خلقي

وتوسع المرء إبداً لا تجاربُـــهْ [١]

ومنه نوع ما هو بتساهل ، ولكنه ضرب من المجازفة في الاعتماد على السذج الذين ينقصهم أسلوب العصر ويعوزهم الوعي السياسي ، حتى لكأن الدعوة تئن من كثرة أخطائهم ، وتنادي :

* تطاول همي ، فابغني ذا نباهة [٢] *

وانه همّ طويل ، يعرفه ويميزه المنغمس في العمل اليومي الحركي ، فان تعقد المجتمع الحاضر ، وتعدد الأحزاب ونشاطها ، والتخطيط اليهودي والماسوني داخل أقطار العالم الاسلامي ، كل ذلك يتطلب نوعا من الدعاة المسلمين يزيدون على ايمانهم واخلاصهم وعلمهم الشرعي نوعا من الـــوعي السياسي ، والخبرة بالأساليب التنظيمية ، والمهارة في التخطيط المتزن الملائم للواقع الذي نعيشه والمناسب للقوة التي نملكها ، وهؤلاء هم وحدهم أصحاب النباهة الذين يبددون هموم الدعوة .

● لا نفصل بين الادارة والتربية

وباطل ظن من يتوهم عدم وجوب شرط القدوة لمـــن يشتغل في مراكز الدعوة التي ليس فيها توجيه تربوي مباشر ،

(١) للبحتري في ديوانه ١ / ٢٢٦ .

(٢) شطر من خريدة القصر ١ / ٢٥٨ القسم العراقي للعماد الاصبهاني .

فالبعض يفصل بين المربين من الدعاة وغيرهم ممن ينفذون الاعمال التي يتطلبها شمول الدعوة ، لكن تحليل الظاهرة التربوية ينفي ذلك ، فانهم جزء مرئي من هذه الدعوة يقلده الجدد والانصار ، ولسان ناطق يسمعه هؤلاء فيتأثرون به ، ولذلك لم يفهم السلف فصل وظيفة رجل الدولة الاسلامية عن التعليم والتربية ، وكانوا يرون أنه رجل تربية أيضاً .

قال ابن تيمية رحمه الله في شرح معنى : (كونوا ربانيين) :

(قال مجاهد : هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره ، فهم أهل الأمر والنهي .)

قال : (وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني .

نقل عن علي قال : هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها .

وعن ابن عباس قال : هم الفقهاء المعلمون.

قلت : أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلمون .

وقال قتادة وعطاء : هم الفقهاء العلماء الحكماء .

قال ابن قتيبة : واحدهم رباني ، وهم العلماء المعلمون .)

ثم ختم فقال إنهم : (منسوبون إلى التربية .) [1]

وإذن ، فإن جميع من يساهم في أعمال الدعوة إنما هو قدوة يحتمل تأثيرها ، ويجب أن يحوز شرط القدوة العملية .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١ / ٦٣ .

• دقة مركز القدوة

ومركز القدوة حساس دقيق جدا ، ويجب أن لا يوضع فيه الا من كان مستعدا للأخذ بالعزيمة والبعد عن الرخص ، والاّ مَن كان يغلب عليه الجد والزهد والتجرد ، ويشتاق الى التعب والبذل ، لأنه إمام لمن حوله يقلدونه ، ولا بد أن يكون فعله أبلغ في التعبير عن عقيدته ومعاني دعوته من قوله ، لأن المنظر أعظم تأثيرا من القول .

ومن هاهنا ، لما هم إمام مصر الليث بن سعد بفعل مفضول ينافي العزيمة قال له امام المدينة يحيى بن سعيد الانصاري : (لا تفعل ، فانك امام منظور اليك) .

وقيل :

« من لم تهذبك رؤيته فاعلم انه غير مهذب » .

ومن لم ينعشك عبيره على بعد ، فاعلم انه لا طيب فيه ، ولا تتكلف لشمه .

والداعية الصادق تستمر هيبته الايمانية في تعاظم، وتظل في تصاعد ما تصاعدت هيبته لله تعالى وتعاظمت اهتمامات قلبه بدعوته ، حتى يغدو منظره قاطعا لغفلة ناظره .

وقال الشافعي :

« من وعظ أخاه بفعله كان هاديا » .

وكان عبد الواحد بن زياد يقول :

---

(٢) تهذيب التهذيب ٨ / ٤٦٣ .

(ما بلغ الحسن البصري الى ما بلغ الا لكونه اذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم اليه ، واذا نهاهم عن شيء يكون أبعدهم منـــه) .

وقال بعضهم :

« للمريد بلقاء كل صادق مزيد ، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال ، وقد قيل : من لا ينفعك لحظُهُ لا ينفعك لفظه » .

ثم شرح هذا المعنى اللطيف فقال :

(ان الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر مما يكلمهم بلسان قوله ، فاذا نظر الصادق الى تصاريفه في مورده ومصدره ، وخلوته وجلوته ، وكلامه وسكوته ، ينتفع بالنظر اليه ، فهو نفع اللحظ . ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضا لا ينفع ، لأنه يتكلم بهواه ، ونورانية القول على قدر نورانية القلب ، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها) .

وهذا من جيد الكلام .

ومثله من كلام التابعين قول شهر بن حوشب :

(اذا حدث الرجل القوم فان حديثه يقع من قلوبهم موقعه من قلبه) .

وقول مالك بن دينار :

(ان العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما تزل القطرة عن الصفا) . أي قطرة الندى عن الصخرة الملساء .

ويروى أنه قيل لعيسى عليه السلام :

(من أشد الناس فتنة ؟

قال : زلة العالم ، اذا زل العالم زل بزلته عالم كثير)[1] .

فلكل هذا كان من فقه الدعوة دقة اختيار من يكون قدوة ، ولا تساهل في الأمر ولا نخدع أنفسنا فنبرر التساهل تجاه البعض بعدم تسميتهم قدوات ، وبوصف مهمتهم بغير وصف التربية ، فان كل من يتعامل مع الدعاة انما هو قدوة لهم ، من حيث امكانية رؤيته وسماع قوله ، ووجود تأثر السمع به ، فان انضاف لذلك ايحاء وصف الداعية بأنه من المربين زاد التأثير ولا شك ، وتفتحت القلوب لقبول كلامه ومواعظه ، فان عضدها فعله فنعمت المواعظ منه ، وان لم تترجمها حياته اليومية معهم الى أفعال فانها لا تعدو أن تكون هذرا منفرا .

(ان الموعظة ان لم تتأدّ في أسلوبها الحي كانت بالباطل أشبه ، وانه لا يغير النفس الا النفس التي فيها قوة التحويل والتغيير ، كنفوس الأنبياء ومن كان في طريقة روحهم وان هذه الصناعة انما هي وضع نور البصيرة في الكلام ، لا وضع القياس والحجة ، وان الرجل الزاهد الصحيح الزهد انما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئا في الحياة والعمل ، لا شيئا في القول والتوهم ، فيكون الهامها فيه كحرارة النار في النار ، من واتاها أحسها .

---

(١) كتاب الزهد لابن المبارك / ٥٢٠ .

ولعمري ، كم من فقيه يقول للناس : هذا حرام ، فلا يزيد الحرام الا ظهورا وانكشافا ما دام لا ينطق الا نطق الكتب ، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التي تجعله روحا تتعلق الأرواح بها ، وتضعه بين الناس في موضع يكون به في اعتبارهم كأنه آت من الجنة منذ قريب ، راجع اليها بعد قريب .

والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس ، ولا يجعل همه الا زيادة الرزق بالمال وشهوات النفس ، ولا يجعل همه الا زيادة الرزق وحظ الدنيا ، هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس ، يفهمهم أول شيء الا يفهموا عنه) . [١]

وبايجاز : ان (الاسوة وحدها هي علم الحياة) [٢] .

ودعوتنا هي الحياة .

فالأسوة وحدها هي علم الدعوة .

وعلم الدعوة كله هو الأسوة الصادقة .

● اختبر عليم اللسان .. !

ولو تفحصنا مدى تطبيق هذا العلم المهم لوجدنا ثغرات كبيرة في تاريخ الحركات الاسلامية الحديثة كان يحصل فيها انخداع بالخطباء ، وأصحاب الشهادات العالية ، والمشاهير ، الى الصدارة من دون طويل تجريب لهم ، وتقع الدعوة في

---

(١) (٢) للرافعي في وحي القلم ٢ / ٢٠١ / ١١١ .

ورطة ربطهم باسمها ، ولا يلبث المعدن الضعيف أن يفضح نفسه أثناء ترغيب أو ترهيب أو سياسة حركية تقتضي فقها لفهمها ، فيكون النكوص .

ان الايمان ، وفقه الدعوة ، وشدة الانغماس في العمل التجميعي والتربوي ، ووضوح الطاعة ، هي المحكمات التي يجب أن تتحكم في عملية الانتقاء والتأمير ، لا شروط الوظائف الحكومية وأعراف المجامع الأدبية .

بل ان على الدعاة أن يجفلوا ويخافوا ويحذروا من يكون عليم اللسان ، الذي يكثر التمشدق ، ويتكلف اختيار الفصيح ، فان النفاق والضعف يكثر في هذا الصنف ، ويجب أن لا يطمئن الداعية الى أحد بهذه الصفة الا من بعد أن يضمر في نفسه امتحانه ، فيراقبه مراقبة دقيقة مدة ، ويكون توثيقه له من بعد تجربة ، ومن بعد رؤية قرائن ايمانه وصدقه .

وللداعية في ذلك سلف ، فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما خاف الأحنف بن قيس رضي الله عنه – وكان الأحنف متكلما لبقا داهية – أبقاه عمر معه في المدينة سنة يراقبه ، ثم قال له :

(يا أحنف ، قد بلوتك وخبرتك فلم أر الا خيرا ، ورأيت علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك ، فانا كنا نتحدث : انما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم .

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري : اما بعد ، فأدْنِ

الاحنف بن قيس وشاوره واسمع منه)[1] .

وكم يحيط بالدعوة في العالم الاسلامي اليوم من رجال يجب على قادة الدعاة امتحانهم ، وكم هي حاجة الدعاة الى مثل علم عمر .

كم من المتكلمين بالاسلام ترى الدعاية ترفعه ، فاذا عاملته وجدته مصلحياً جاف القلب والروح .

وحقا قال عبد الوهاب عزام :

ان في الناس أوجهـــا لامعات
تملأ العـــين زهرة ورواء
ويراها البصير صورة زهــر
لم تهبها الحياة عطرا وماء [2]

ولمثل هذا دأب السلف الصالح على كثرة التوصية بضرورة مثل هذا الاختبار ، كقول سيد التابعين الحسن البصري :

(اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم ، فان الله لم يدع قولا الا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه ، فاذا سمعت قولا حسنا فرويدا بصاحبه ، فان وافق قوله عمله فنعم ، ونعمة عين ، فآخه ، واحببه ، وأودده ، وان خالف قولا وعملا فماذا يشبه عليك منه ، أو ماذا يخفى عليك منه ؟ اياك واياه ، لا يخدعنك)[3] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٩٤ .
(٢) ديوان المثاني / ٨١ .
(٣) الزهد لابن المبارك / ٢٦ ، الموافقات للشاطبي ١ / ٣٠ .

انها الوصية القديمة ، ولكن القلوب تغفل ، وشهوة الوصول السريع ، أو شهوة التكاثر بالأنصار ، تلهي ، وتدعو الى التجاوز عن العلم الموروث .

● البدعة ضعف ايضا ...

وضعف الضعيف يكون من بدعة كما يكون من ذنب ، وهذا ما تعارف عليه العلماء منذ القدم ، حتى إنهم كانوا ليهجرون الاخ الشقيق إذا اعتقد ببدعة ، مثل علي بن حرب بن محمد الموصلي ، هجر أخاه أحمد بسبب قوله ان لفظه بالقرآن مخلوق ، مع ثقته وصدقه [1] ومع سلامة قوله هذا ، واشتهاره عن البخاري أيضاً ، ولكنه انكر عليه لقرب العهد من بدعة خلق القرآن ، وارادوا ان لايدندن أحد بما يقرب من الفاظ المعتزلة ويزيد حيرة العامة .

ولكن ادعياء وحدة الأمة في هذا العصر يدعون إلى التجاوز عن معاني البدع ، وسرى هذا الوهم إلى بعض الدعاة ، واسقطوا امر البدعة كعامل من عوامل التمييز ، فوقعوا في الخطأ .

إنه خلق جميل ان تعطف على المبتدع ، وان تنصره على كافر ، وترفع الظلم عنه ، وتقف معه في وجه من هو أكثر بدعة منه ، لكنه أمر خطر ان تفتح له صفوف الدعوة قبل توبته ، وان تؤمره قبل سلامته ، وان تحبه قبل غسله الادران

(١) تهذيب التهذيب ١ / ٢٣ .

التي علقت بعقيدته ، فانه ما أوهى أمر الأمة الا البدع ، كما قال الفضيل بن عياض :

(من اعان صاحب بدعة فقد اعان على هدم الاسلام .)

وقال : (من أحب صاحب بدعة : احبط الله عمله ، وأخرج نور الاسلام من قلبه .) .

ان الدعوة للأخذ بيد المذنب ، والعاصي في تصرفاته السلوكية ، إذا كان أصل الايمان في نفسه : أهون بكثير من التعاون مع المبتدعة حال تمسكهم ببدعهم ، والمذنب أقل ضرراً من المبتدع من وجوه ، منها :

(ان المذنب انما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على الناس .

وفتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة المذنب في الشهوة .

والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه ، والمذنب ليس كذلك .

والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك .

والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والعاصي ليس كذلك .

والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطيء السير .)[1]

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم / ١٢٧ .

• من فقه الفضيل في العمل

ان حذر العمل الجماعي الاسلامي من المبتدعة أصبح قاعدة تؤكد نفسها يوماً بعد يوم .

وانها لقاعدة قديمة ، عمل بها الفضيل بن عياض ، واوجزها في كلمات رائعة ، فقال :

(لأن آكل عند اليهودي والنصراني أحب الي من أن آكل عند صاحب بدعة ، فاني اذا اكلت عندهما : لا يقتدى بي ، واذا أكلت عند صاحب بدعة : اقتدى بي الناس .

أحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد .

وصاحب البدعة لا تأمنه على دينك ، ولا تشاوره في أمرك) .

ان هذا القول القديم ، ترجمة كاملة للمعنى الذي نقصده ، ولمبدأ التشدد في الانتقاء ، صاغه الفضيل في مثل من المؤاكلة ، تقريباً للفهم .

• استر سمعة الاسلام

فقد بان اذن ، ان التشدد في الانتقاء هو الحل الأساسي للتأمين ضد الاندفاعات العفوية ، وان اجزاء الحركة الاسلامية مدعوة إلى الاستدراك السريع في هذا المجال .

بل الحق ان الانتقال إلى هذا التشدد ستر واجب لسمعة الاسلام اليوم ، كما قال الفقية الزاهد الوزير العباسي ابن هبيرة الدوري السامرائي لبعض من يأمر بالمعروف :

(اجتهد أن تستر العصاة ، فان ظهور معاصيهم عيب في أهل الاسلام ، وأولى الأمور : ستر العيوب) [1] .

ومن أهم أوصاف الستر الذي يطلبه ابن هبيرة : ان تحرم اعداء الاسلام من فرصة الاشارة إلى مثل هؤلاء الضعفاء ، والتشهير بالدعوة من جراء تصديهم لأمورها . وكلما دفعت التقي النقي إلى الظهور دون الضعيف والمصلحي والمبتدع ، كلما كنت أكثر صوناً لسمعة الاسلام .

بل ينبغي ما هو أشد من هذا ، فانه من الواجب على الثقة ان يفوّت الفرصة على الضعيف إذا جالسه بقصد ان يقال : جالسه الثقة فلان من الدعاة فهو ثقة ، وانه لو لم يكن ثقة لما جالسه .

و شبيه بهذا ما أخرجه الترمذي عن ابي موسى الأشعري رضي الله عنه قال :

(كان اليهود يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم يرجون ان يقول لهم : يرحمكم الله . فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم .) [2]

فلو قال لهم : يرحمكم الله ، لقالوا للمسلمين : لو كنا ضالين لما دعا لنا بالرحمة .

وأيضاً ، فان تنظيمنا ما هو بطبيب يداوي ، وانما هو مستدرك يغتنم الفرص قبل ان يحوّل طول تسلط الطغيان سلبية

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٢٧٤ .

(٢) سنن الترمذي ١٠ / ١٩٨ .

المسلمين إلى استخذاء دائم ، ولذلك وجب عليه الانتقاء والتخير للاذكياء الشجعان ، ومنع الجبناء وضعاف الشخصية وقليلي الذكاء من دخوله ، توفيراً للجهود التربوية ، واسراعاً في تحقيق الغايات ، مع التعويض بتعاون معهم خارج عن الالتزامات الدقيقة .

وليس في هذا المنع عدوان على هؤلاء كما يظن البعض ، ولا بخس لحقوقهم ، ولا منع خير ، وانما هو باب من التقوى في أمر الدعوة توجبه المصلحة وتؤكده التجارب . ولهؤلاء الضعاف اسلامهم ، ولا نبخل عليهم بحب ونصيحة ، ولكن أمر الدعوة شديد لا يصلح له إلاّ الاشداء الأذكياء ، فمنعنا تقوى وانتقاؤنا عزم ، كما قال الشاعر :

منعتُ ، وبعض المنع حزم وقوة

صنيعة تقوى تلك ما دمتُ ناصحَهْ

فبعض المنع ، وسد الأبواب بوجه الضعفاء ، إنما هو حزم وقوة تحركهما التقوى ، من دون غلو في اتهام الناس ، أو سوء ظن ، أو شطط في التعامل .

● أنت يوسف هذه الأحلام .

ان تجمعاً لا ينتقي اعضاءه قد ينهار لا بأول عاصفة يتعرض لها ، بل بأول نسمة خفيفة تفجؤه .

وهذا تعبير له تعبير ، كما يقول الامام البنا رحمه الله .

(وأنت يوسف هذه الاحلام . فإذا راقك ما نحن عليه

فيدك مع أيدينا لنعمل سوياً في هذا السبيل ، والله ولي توفيقنا وتوفيقك) [١]

أنت يوسف هذه الاحلام أيها الغيور .

وبدونك يبقى هذا الفقه احلاماً ، وأنت أنت الذي عندك تأويلها العملي وتطبيقها الواقعي .

فدع السلبية ، وبادر من فورك . . . .

واخلع ثياب الأسى واليأس مرتدياً
ثوب الجهاد نشيطاً غير كسلانِ
وأتقن الموت فناً كيف تجرعه
ان لم يكن منه بُدٌ غير خشيانِ [٢]

(١) رسالة دعوتنا / مجموعة الامام / ١٢٢ .

(٢) ليوسف القرضاوي / مجلة التربية الاسلامية ٥ / ٢١٨ .

١٧ .... تركيز لا تكاثر

كان في تدقيق الانتقاء ما يعصم من قواصم العفوية .

وتكمن العاصمة الثانية في تجميع متناسب مع جهود المربين ، بحيث يمكن اسماعهم جميعاً الكلام الموجه ، بتركيز مؤثر ، ومنع التأثيرات الخارجية عنهم .

ولا شك في صعوبة هذا الحل الثاني .

ويقصد بالصعوبة : صعوبة (السيطرة) على الرغبات النفسية الاصيلة في كل انسان في حب (الثراء) في كل شيء ، مما اشار اليها القرآن الكريم باجمال في قوله تعالى : (الهاكم التكاثر) . .

فالإنسان يحب الثراء الكمي العددي ، في المال ، والعلوم ، والبنين ، والأنصار ، في كل شيء .

وهي نزعة أو غريزة لا يمكن السيطرة عليها إلا بالتربية العميقة .

وخطورة اهمالها تتأتى من ان اشباع الغريزة يؤدي إلى حصول (النشوة) في الانسان ، والنشوة حالة من حالات النفس تؤثر على العقل تأثيراً سلبياً ، فتجعله في ركود .

ان النشوة ضد الخوف .

وفي النفس الانسانية يقترن الاطمئنان مع النشوة ، والحذر مع الخوف .

والمعروف ان العقل اقصى ما يكون تحفزاً واشتغالا وشحذاً في حالة الحذر .

ومن هنا تصاحب النشوة اندفاعات غير مدروسة ، يشترك فيها الجميع ، القادة وتلاميذهم ، لأن الاحساس بالثراء يولد الاطمئنان وايحاءات الضمان .

• معارك النفس

ان هذا التقرير يؤكد ما قلناه من صعوبة المعركة التي تخوضها الدعوة ، فان ميدان المعركة هو النفس الانسانية بكل تعقيداتها ومتناقضاتها .

أنت لا تتعامل مع أحجار صلدة ، ولا مع أصحاب طهر ملائكي .

أنت تعيش وتتعامل مع نفس انسانية ، فيها الغرائز : غرائز حب البقاء ، وحب التكاثر والثراء ، واشباع الشهوات الجنسية . وفيها النزعات : نزعات الثأر ، والحذر ، والدفاع عن عقيدتها وحب شيوعها .

والمجتمع الذي أمامك هو مجموع هذه الغرائز والنزعات والميول والرغبات ، فان لم تعرف المداخل والابواب التي تدخل منها إلى هذا المجموع من الغرائز والنزعات المسمى بـ (المجتمع) فان الفشل يصيبك حتماً ، وإذا غالطت نفسك وتجاهلت هذه الغرائز والنزعات فلن يضير وجودها شيء ، وأنت تضار .

ستبقى هي لانها وجدت باذن الله لتبقى ، أما أنت فستزول وتخونك حساباتك وتقديراتك لأنك خالفت الفطرة .

ان النفس الانسانية هي ميدان كل هذه الانقلابات الاجتماعية والسياسية الكثيرة المتواصلة التي يحدثنا عنها التاريخ القديم والحديث .

اندفاع وراء اشباع البطون ، أو اشباع الشهوة الجنسية أو طلب الترف .

اندفاع ثأر ممن سلبها ارضها أو نساءها .

اندفاع وراء اشاعة عقيدة اعتقدتها ، أو محاربة من يخالف هذه العقيدة ، بالمفهوم الواسع للعقيدة ، من مثل وقيم ، حقة أو باطلة .

انها اندفاعات مادية ومعنوية ، قد تجتمع وقد تنفرد . هؤلاء هم البشر .

ان بعضهم قد وجد في نفسه المقدرة على توجيه الاخرين نحو قسم من هذه التصرفات التي تساعد عليها الغرائز والفطر ، فسمينا عمله هذا . (تربية) .

ان معارك السياسة والحروب صورة لمعارك النفس .

* الهاكم التكاثر بالأمس ، فاتزنوا

واذن ، فان معركتنا معركة تربوية ، أي أنها تقوى وتشتد كلما تعمقت التربية واتقن المربي عمله ، وتخبو جذوتها كلما فترت التربية وكانت سطحية .

أي ان الجهود التربوية لعدد محدود من القادة المربين إذا تركزت على التلاميذ فانها تكون اعمق تأثيراً فيهم كلما قل عددهم ، بتناسب طردي ، وتفتر ويقل تأثيرها كلما زادعددهم.

ومع هبوط كمية التأثير يحصل الاندفاع العفوي غير الهادف ، ثم القاصمة والمصرع .

واذن ، فإن من صالح معركتنا أن لا يندفع الصنف القيادي المتولي لعملية التربية في تجميع عدد من التلاميذ أكبر مما تكفي له جهودهم التربوية .

وهذا هو الحل الثاني للوقاية من مصارع العفوية يمليه تحليل الظاهرة التربوية .

ولقد شهد تاريخ الحركة الاسلامية بالامس القريب تكاثراً بالعدد على حساب النوعية أرهق والهى ، واجبر دعاة اليوم على الاتعاظ ، وما اتزان التوسع الا وصية الغد .

نقول : انها وصية الغد ، لما رأينا من نسيانها ، والا فانها الوصية القديمة للامام البنا رحمه الله ، شدد عليها منذ سنة١٩٣٨ في انعقاد المؤتمر الخامس ، في صورة توضيح لاصناف الرجال . أمام اعباء العمل ، وعدم اغناء الخيال من الصواب شيئاً ، وانما هي (الصورة) فحسب — كما سماها الامام واستعارها السيد

من بعد ــ تحمل اعباء الجهاد .

يقول :

(أريد أن أكون معكم صريحاً للغاية ، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة : ان ميدان القول غير ميدان الخيال ، وميدان العمل غير ميدان القول ، وميدان الجهاد غير ميدان العمل ، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطىء .

يسهل على كثير ان يتخيلوا ، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره اقوالا باللسان ، وان كثيرين يستطيعون أن يقولوا ، ولكن قليلين من هؤلاء يثبتون عند العمل ، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا ، ولكن قليلا منهم يقدرون على حمل اعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف ، وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار ، قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف ان لم تتداركهم عناية الله ، وفي قصة طالوت بيان لما أقول .

فأعدوا أنفسكم ، واقبلوا عليها بالتربية الصحيحة ، والاختبار الدقيق ، وامتحنوها بالعمل ، العمل القوي البغيض لديها ، الشاق عليها ، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتهاوعاداتها)[1]

وورث سيد رحمه الله هذا الفقه ، فجعله قلقاً قبيل وفاته ازاء ما يرى في السودان من التوسع وامتلاء الشوارع بمظاهرات المسلمين ، فأوصى من زاره من دعاة الاسلام في السودان فقال :

---

(١) المؤتمر الخامس / مجموعة الامام / ٢٥٨ .

(يجب الا يشغلكم اقبال الجماهير عن تنظيم صفوفكم الداخلية واعداد رجال يواجهون الشدائد ويثبتون .) [1]

والحقيقة ان أهمية الصف الداخلي المتين لا تنحصر في معطيات صفته التنظيمية وسهولة استغلال طاقاته المنسقة ، بل في تحقيقه (المجتمع التربوي) الذي يحتضن الجديد المتربي ويريه زيادة المناظر الاسلامية ويحجب عنه رؤية الجاهلية والجاهليين وسماع أقوالهم فيبعد عن التأثر بتربية أخرى غير اسلامية ، ولمثل هذا أوجب الغزالي رحمه الله المسارعة الى كبت الفسق وحجبه لئلا يؤثر منظره في نفوس المسلمين ، وقال :

(ان مشاهدة الفسق تهون أمر المعصية على القلب ، وتبطل نفرة القلب عنها) [2] .

وهذا يعني أيضا أن بقاء بعض الفسق — بمعناه الشرعي — عالقا بالأشخاص الذين تجمعهم ، لعجز كفاياتنا وطاقاتنا التربوية التوجيهية عن ازالته عنهم وتحويلهم عنه لكثرة عددهم ، سوف يؤدي الى احتمال سريان عدواه الى العناصر النظيفة ، لما في العيش الجماعي من المشاهدة التي تؤدي الى التقليد .

وعلى ذلك ، فان جولات الداعية الضرورية بين الجماهير العامة مثلما تؤدي الى تربيته عمليا والى اغناء الدعوة بالعناصر الجديدة التي يكتشفها ، فانها تؤدي أيضا الى احتمال تهوين أمر المعصية على قلبه اذا انقطع اليهم انقطاعا طويلا لكثرة

---

(٢) كتاب الشهيد سيد قطب) / ٩١ .

(٣) احياء علوم الدين ٢ / ١٧٢ .

المعاصي في حياة العامة ، فوجب تردده على مجتمع الدعاة الصافي ليرى من مناظر الايمان ما يضاد مناظر الفسق ، ويكون حائلا بين هذا المجتمع العام ، ، وبين هذا المجتمع الخاص الذي يرقق قلبه أن أضرَّ بِه الأول ، وهذا ما يؤدي بالتالي الى الحرص على نقاوة هذا المجتمع الخاص ليؤدي مهمته التربوية هذه لكل داعية متجول بين العامة حين يفيء اليه ، والنقاوة لا تحصل الا باتزان التوسع .

فكما أن التوسع السريع يستهلك الطاقة الحاضرة ، فانه يضعف الناتج القديم .

• دور التجمع في التربية التكميلية

والداعية الحر . المتفاعل مع التطورات والحاجات اليومية للحركة الاسلامية ، يرى عمر بن الخطاب رضي الله عنـــه واقفاً أمامه في كل لحظة ، وهو يدعو دعاءه المشهور :

(اللهم اني اعوذ بك من جلد الفاجر ، وعجز الثقة) .

فترتعش عضلاته رهبة ، ويهفو قلبه رغبة ، ويسارع ليتخذ من الامكانيات التربوية للعمل الجماعي ما يرضي به ظن أبي حفص الفاروق ، فيعكف على توعية الامين العاجز الساذج ، وترقيق قلب ذي الجلادة المتحرك الشغول المتهاون بأمر بعض الأعمال الإيمانية ، ليزداد ــ بهذا السد للنقص ــ عدد الثقات الذين يجمعون بين الوعي والجلادة .

وهذا العنصر القوي الأمين هو خير من ينهض باعباء

الدعوة ، ولا بد من تكميل صفة الجهاد في المؤمن ، وتعميق إيمان المجاهد ، كما قال الله تعالى :

(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ، فاولئك منكم .)

قال ابن تيمية :

(عقد الله سبحانه الموالاة بين المهاجرين والأنصار ، وبين من آمن من بعدهم وهاجر إلى يوم القيامة . والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والجهاد باقٍ إلى يوم القيامة .

فكل شخص يمكن أن يقوم به هذان الوصفان ، إذ كان كثير من النفوس اللينة يميل إلى هجر السيئات دون الجهاد. والنفوس القوية : قد تميل إلى الجهاد دون هجر السيئات .

وانما عقد الله الموالاة لمن جمع بين الوصفين ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين آمنوا به إيماناً صادقاً .)[1]

وتمكين كل داعية من الجمع بين الوصفين ، وتمكين القضية الاسلامية من استثمار حسنات الطائفتين ، مهمتان أساسيتان لتربيتنا الحركية .

فللأول ، صاحب الايمان ، القاعد ، أو صاحب الوعي ذي القلب القاسي : بما تتيحه التربية من تكميل نقصه على يد من سبقه من الدعاة .

وللقضية الاسلامية : بما يكون من تنسيق جهود الطائفتين

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اصحاب الجحيم ، لابن تيمية / ٤٩ .

بنوع تكامل وتعادل ، وجمعها ، وتخطيط صرفها لتؤدي فائدتها مجتمعة مركزة .

● ليس من الجهد ما يهدر ، ولكن النجاح قد يتأخر

وتضيق الأرض بمتحمسة الدعاة حين نلح في بيان اتزان التوسع في وقت طال فيه المسير ، ويرون أن هناك ثمة فشلاً يصيب الدعوة إن تخلت عن سباق العدد .

ولا ننكر أن أخطاء الماضي قد حرمت الدعوة في أماكن متعددة من العالم الاسلامي من فرص توسع ، وانبثاث مأمون في محيط مستعد لتقبل الكلمة ، وان أحزاب الضلال قد استغلت برود دعاة الاسلام فتقدمت بمراحل عليهم ، ولكن الخطأ لا يستدرك بمثله ، وتقييم فشل الدعوة ونجاحها في حقبة معينة لا يعتمد على احصاء من استطاعت نقلهم من محيط التسيب الى صفوفها ، ذلك أن الدعوة طالما كانت سببا في هداية الآلاف من الشباب وعصمتهم من الفجور والزيغ وان لم يدخلوا صفوفها ، لأسباب مختلفة ، وهذا في ميزان الاسلام عظيم . وطالما كانت الدعوة كالواحة في وسط الصحراء الموحشة المقفرة حين تأوي اليها جموع المسافرين فينعمون بظلها ومائها ويأنسون بأهلها ، وكثير عدد أولئك الشباب الذين احتضنتهم الدعوة في مراهقتهم ، واجتازت بهم فترة الشباب بسلام ، ورفلوا في ظلها ، وآنسوا بأهلها ، وان أقعدهم الترغيب والترهيب عن مواصلة السير معها .

وكم نقلت الدعوة شاكا الى اليقين ، ومؤمنا جاهلا الى العلم ، وهذا في الميزان الشرعي عظيم .

وكم أوضحت الدعوة من شبهة ، وردت من تهمة ، وأشادت بمناقب مظلوم ، وكل ذلك في الميزان عظيم .

واذن ، فاننا يجب أن لا ننظر بالمنظار القاتم الذي يولد اليأس في نفوس العاملين ، فان الدعوة لم تفشل ، وينتظر من عمل فيها أجر مدخر كبير ان شاء الله مثلما ينتظرهم جني ثمار كثيرة زرعوا بذورها بالأمس .

ان أناسا كثيرين ، بتأثير عمل الدعاة الماضي والحاضر ، تحتدم في نفوسهم معاني الايمان والجاهلية ، وهم الآن في صراع نفسي داخلي عنيف غير منظور ، أيؤمنون ويقرون بما يقول دعاة الاسلام أم يبقون على ما هم عليه ؟ . وهؤلاء مصيرهم الى الايمان حتما حين يتضح الحق أمامهم اتضاحا كافيا ، في حادثة تهزهم هزا ، وتخضهم خضا ، فيتمحضون ، وينخرق حجاب الران عن القلب ، فيصل اليه النور . تماما كالاسلام المفاجىء المأثور عن بعض الصحابة رضي الله عنهم ، كعمر حين دنا من الصفا ، فسمع اخته تتلو القرآن ، فصفا ، أو حمزة حين رجع من الصيد ، فسمع كلام المؤامرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآمن وكسر القيد .

هل يقال ان كل اسباب إيمانهم جاءتهم في لحظة واحدة ؟

كلا ، فان معاني الإيمان كانت تحتدم في نفوسهم ، وكان

هناك صراع نفسي ظل يتنامى حتى فاض سيل الخير في تلك اللحظة .

ولئن حرصنا اليوم على عمق التربية ، والاقتصار على الصفوة ، واتزان التوسع ، فلتغطية حاجة جحافل أهل الاحتدام هؤلاء يكون هذا الحرص ، وانهم لفي سير الينا ، وعما قريب يكون الوصول ، والحادثة الهازّة الخاضّة خبيئة عند الله ، يرحم الله بها الصابرين ، ومن لا يؤمن بمثلها فهو بحاجة إلى نظر في السيرة والتاريخ جديد . . . . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين

محتويات الكتاب